ديـكارت

بقلم الدكتور كمال يوسف الحاج

استاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

○ ○ ○

يعتبر ديكارت بحق « ابو الفلسفة الحديثة » . فمنذ ان قال عبارته المشهورة « انا افكر اذن انا موجود » والفلاسفة المحدثون يضربون فيها طولا ، وعرضا ، وعمقا . اجل الفلسفة الحديثة مرايا تنعكس فيها ومنها الـ « انا افكر اذن انا موجود » . لا اقصد بذلك ان الديكارتية عجنت كل الحقيقة . مثل هذا العجن ليس من عمل الارض، لانه فوق زخم الارض ، وان كان في بدء من الارض . ولكنني قصدت به ان الذين حالفوا او خالفوا الديكارتية ، انطلقوا جبرا من العبارة المشهورة « انا افكر اذن انا موجود» اجل هناك من حالف ، وهناك من خالف . هناك الديكارتيون وهناك الانتيديكارتيون . المهم انهم انعكفوا جميعا على البحث في ما تذهب اليه تلك العبارة ، فلم يوجد من الفلاسفة المحدثين واحد لم يتكرتز . كلهم ادلوا بدلائهم في خضم الكوجتة ، حتى غدت نقطة وفاق او افتراق لجميع الذين زاولوا الطيران الفلسفي .

عصر ديكارت

لنسرد قصة الكرتزة . لنسردها من البداية ، كي نرى كيف انتهى ديكارت الى الكوجيتو ، اي الى « انا افكر اذن انا موجود » ، وكيف انطلقت الفلسفة الحديثة من هذه النقطة العامرة العارمة . نعلم ان عصر ديكارت هو عصر بلبلة فكرية . هو عصر ابهام . هو عصر لم تتضح في نظر ابنائه ، المفاهيم الانسانية . ذلك العصر ، اعني القرن السادس عشر ، اخذ على عاتقه ان يحرر الانسان من كابوس التقاليد ، فاغار على الماضي يحطمه تحطيما . لقد اصبحت الحقيقة ، لا كما يقولها السابقون ، ولكن كما يقولها العقل . عرف انسان ذلك العصر ان الحقيقة ليست في اطر اشخاص زائلين . عرف انها ليست هي ما هي ، لان سقراط ارادها هكذا ، او افلاطون ، او ارسطوطاليس. ان الحقيقة هي ما هي بمعزل عن سلطة هذا ، او ذاك ، او ذلك . انها قائمة في بدء مما هي عليه اساسا . ولذا كان لها من قوة بحثها الصافي ما يمدمكها فوق نسبية الزمان والمكان ، اي فوق كيانات افراد معينين . اذن ليس لبطرس او لبولس ، في الماضي (مهما علا كعبهما في البحث عن الحقيقة) ما يبرر رجوعنا اليهما ، عندما نطلب النور الاكبر . لا قدسية للماضي .. لا عصمة من الغلط للفلاسفة القدامى . ومن هنا كون القرن السادس عشر قرن اللاتاريخ لقد سمي بعصر النهضة .

اما نتائج هذا التفلت من فروض التاريخ (اعني من عدم الركون الى فحول الفلسفة في الماضي ، امثال المعلم الاول ارسطوطاليس) فقد كانت الفوضى في الابحاث ، التي تدور حول معضلات الفكر . ان المساجلات المنيفة ، التي حصلت جيلذاك ، تدل بوضوح الى انه لم يعد هنالك من ضابط لجنوح العقل البشري .لقد قطع العقل رسنه اللاجم . وتحمست العقول في سبيل العقل ، حتى جاء حماسها للعقل ذاته اقرب الى العاطفة نفسها منه الى صفاء العقل الخالص . وكان التخبط العشوائي في الاحكام، على غرار ما حدث قبلا ويحدث دائما ، عندما يستوكر الفكر اعماق فكره.

على هذا المسرح ظهر ديكارت . ظهر ، وفي عنقه ميل جارف الى الوضوح كردة فعل ايجابي . كان يعشق الوضوح . كان فيلسوف الوضوح . الوضوح ، في نظره ، معيار الحقيقة ... ميزانها العادل . هو البساطة عينها . هو الذي لا خلف خلفه ، ولا قبل قبله . ولذا كان لا يرجع الى ما هو اوضح منه . هو نفناف . هو البياض المتناهي في بياضه . هو البادىء من ذاته . الواقع ان لا شيء يحدد الحقيقة كالوضوح ... اجل ظهر ديكارت ، وفي عنقه ميل جارف الى الوضوح . وراح يتلفت يمينا وشمالا. راح يمعن النظر الفحيص في مفاهيم عصره . ماذا رأى ؟ رأى عوالم يشوبها الغموض ... غموض في الاحكام ، وغموض في التعبير . غموض اينما وجه نظره السابر .

من هنا تبدأ كرتزة الفكر البشري . من هنا تبدأ قصة ديكارت المأورائية . لقد انطلق ديكارت كالمغوار ، في قمره المجنح ، ليدرك القطب الذي تدور عليه جميع الاقطاب الباقية . ولهذا شرط ... البداية من البداية . وشرع ديكارت يغسل ذاته ، اولا وثانيا وثالثا ، من كل ما يلوح له فيه بنية فساد . اراد ان يدرك ما هو اشطف زوما، فلا يعود بعد نظافته من بعد . اراد اول سفر في وجدانه . اذن عليه ان يعيد من جديد بناء كل شيء ... ان يرفع الحقيقة ، مرة اخرى ، على اعمدة تتحدى مناطحة الزمان. لقد كان ارخميدس يطلب نقطة ثابتة ، كي ينقل الكرة الارضية ، من مكان الى مكان . وكذلك ديكارت . كان يطلب ركيزة ، لا تتزعزع ، لفكر لا يتغبش . لكن مثل هذا المشروع يوجب مشروعا سابقا . ان البداية من جديد عملية املاء ، ينبغي لها ان تاتي بعد عملية اخلاء . الاخلاء قبل الاملاء .. الشك قبل الايمان . ومن هنا شعور ديكارت بضرورة اطلاق نفسه اولا ، من جميع ما رسخ في قرارة نفسه . الا انه لم يقصد بالاطلاق أ ي اطلاق . الاطلاق الصحيح لا يكون هوسا ... لا يكون كيفما اتفق . الاطلاق انطلاق ، اي بداية تبدأ من بداية صاعدة . الانطلاق مركوز على منطق صارم لذا نرى ديكارت يشرع بفكفكة البراويز عنه ، واحدا واحدا، وفق ما يقتضيه منطق الانطلاق . ولقد فك براويز ثلاثة ، محتفظا بالتسلسل الكائن فيما بينها. فك اولا برواز الماضي. وفك ثانيا برواز الجسم . وفك ثالثا برواز العقل . تلك هي المحطات الثلاث الكبرى ، التي وقف عندها ديكارت ، في انشلاحه الى اغوار الحقيقة . وقد كان الوضوح ديدنه . قال يجب ان لا اقبل شيئا على انه حق ، ما لم يتمثله فكري بوضوح مطلق . والوضوح الذي عناه ديكارت احتكاك فوري بالشيء المطلوب . هو ربط مباشر بين الفكر والمفكر فيه . هو مجيء النفس توا الى الموضوع . هو ان لا يعود الفكر قادرا على ان يفتل طاقا اخر حول الشيء الواضح .

البرواز الاول : الماضي

لنبدأ بالتربية. يقول ديكارت لقد كنت طفلا قبل ان اصبح رجلا . والطفل يصدق كل ما يقال له ، لا لان ما يقال له واضح منذ البداية ، ولكن لانه عاجز عن ان لا يصدق . الطفل عاجز عن الشك . ان جميع الاراء الكاذبة، التي تقال له ، ترسخ في ذهنه ، ثم تأخذ شكل عادة . والعادة قوة استمرارية ، ترينا الشيء المعتاد ، كانه واضح تماما . انها تخلق ربطا مباشرا بيننا وبينه ، فيصبح ملاصقا لنا . الا ان هذا الربط المباشر ، في ذات الطفل ، لا يكون منذ البداية . هذا الربط المباشر يجيئه مع الايام العابرة . اذن لا فائدة من التربية . هي غير واضحة ، والشك فيها واجب .

ولا فائدة من التقليد ، الذي لا يتضح في بدء من ذاته . هو عود الى زمان ومكان . والحقيقة لا تتزمن ولا تتمكن . الحقيقة بداية مستقلة من ذات بدايتها . والتقليد يطمس تلك البداية المستقلة . هو لا يعودنا النظر بصفاء الى الامور . هو لا ينقح فكرنا من الغباشات . هو لا يقوم وجداننا من الاعوجاج . من اجل هذا يجب كسر بروازه . وقد كسره ديكارت . فكه عن عنقه غير آسف عليه . شك في كل ما تحدر اليه من السلف ،ليدرك ما هو واضح كل الوضوح . ان الحقيقة لازمة لازبة ، لا لانها قيلت في ما غبر، ولا لانها في كتب ارسطوطاليس . هي لازمة لازبة ، بمعزل عن الزمان والمكان ، لانها قوية من ضمنها . وهذا يعني انها فوق التاريخ . الحقيقة لا تاريخية . وهو فحوى قول ديكارت لا اريد ان اعرف ما اذا كان قد وجد احد قبلي .

ان الالتجاء الى اقوال السابقين ، في سيرنا الى الحقيقة ، مدعاة للشطط عن الحقيقة . جميع الاراء ، التي قيلت حولها (وقد قالت الانسانية حولها كل ما يجب قوله) لاقت من يؤيدها ومن يرفضها ، عبر الاجيال المتلاحقة . فالى اية فئة نعطي ثقتنا ، وكل فئة تدعم اراءها بالحجج الدافعة ؟ ان القضية هنا ليست قضية كم ، او تصويت ، لان الحقائق الازلية لا تقوم صحتها على ان عددا اكبر من الناس ، قد صرح بها ، لقد كان سقراط من جهة ، وكانت اثينا من جهة . ولكن الحقيقة لم تقف الا بجانب سقراط . على الانسان ، اذن ، ان يتولى توجيه نفسه بنفسه ... وهل يستطيع غير ذلك ؟ ان حياته لقصيرة المدى . ولذا لا تجيز له ترف الرجوع الى اقوال السابقين ... الى الماضي . هو ياتي الدنيا مرة واحدة . هذه المرة الواحدة لا تكفي لينقب في كل ما الف قبله . ان مطاليب وجودنا ملحة ، لا تترك لنا المجال للتفتيش ، عن جوهر كل ما هو كائن . فاذا اراد الانسان ان يبحث عن الحقيقة ، في اقوال الغابرين ، وان يلم بكل المعارف التي سبقته ، اصابه الجنون . ذلك لانه يسلك مسلكا لا آخر له . وهل يحتاج الانسان الى ان يتعلم لغات الارض ، جميعها ، ليتمكن من ان يتكلم ؟ كذلك لا يحتاج الى التقليد ، والتنقيب الزائد ، ليعرف كيف يجب عليه ان يعرف . الحقيقة ليست وقفا على احد دون سواه . انها في متناول كل الناس . هي فينا ومنا . وهي تبرز بين الفينة والفينة ، بطريقة واضحة علينا فقط ان نتعهد بذورها، بالعقل السليم الواضح ، لتنمو صالحة وتضعنا على الصراط القويم . الانسان قادر ان ينتزع الحقيقة من فكره دفعة . امن الممكن ان يستعرض احدنا كل ما جاء في الماضي ؟ لنبدأ اذن من حيث يجب ان يبدأ به . لنبدأ من الوضوح لا من الماضي . هذا هو معنى الانطلاق . وهذا هو البرواز الاول الذي حطمه ديكارت . لقد فكه عن عنقه ، ثم كسره ، ثم رماه جانبا . وبذلك لم يعد مربوطا ولا مرتبطا بمساحب الزمان الغابر . لا ماض له. لا ذيول له في الذي سلف . انه المطلق المطلق .

البرواز الثاني : الجسم

ثم راى ديكارت نفسه حيال برواز ثان . راى نفسه حيال عالم خارجي ... امام فلك دوار . راى جبالا ، وسهولا ، واشكالا ، واصواتا ، وروائح . راى مظاهر تتبدل. منها ما يروح ومنها ما يجيء . وهنا قال ديكارت .. ماذا يكون هذا الخضم من الاشياء التي تحيط بنا ؟ الا يمكننا الشك فيه ؟ اجل انه قابل للشك ، لانه غامض ، يفرض علينا بدون رضانا . نحن سلبيون اذن حياله .

نعلم نحن ان متسلنا الوحيد اليه ، او متسلله الوحيد الينا ، هو الحس . والحس رجراج . انه يتغير وفق الزمان والمكان . اما الحقيقة فثابتة . هي ثابتة لانها واضحة والواضح الواضح لا يقبل التبديل . انه دائما هو ما هو . مثلا على تغير الحس . ان الابراج التي اراها ، عندما انظر اليها ، تفرض علي بدون اختيار مني . انا لا اختار مراى برج من الابراج ، اذ افتح عيني ، فاذا به ينتصب امام ناظري . لقد انخت بالضرورة لمرآه . ثم ان البرج الذي يلوح لي مستديرا عن بعد ، يبين لي مربعا عن قرب . والتمثال الضخم ، الذي اقيم على قمة ذلك البرج ، يبدو لي صغيرا اذا نظرت اليه من الاسفل . ان الشمس ، التي تظهر لي في غاية الصغر ، يقول علم الفلك انها اكبر من الارض اضعافا كثيرة . ايمكن ، والحالة هذه ، ان اثق بالحواس المتقلبة ؟ من يؤكد لي ان الشمس ، التي ارى ، هي حقا شمس ؟ ... هل هناك اعمق في النفس ، والصق بها، من الالم الذي يوجع ؟ ومع ذلك ، يقول ديكارت ، لقد تعلمت فيما مضى ، من الاشخاص الذين بترت اذرعهم وسيقانهم ، انهم كانوا يحسون احيانا بالم في العضو المتور من اجسامهم . هذا الامر حدا ديكارت ايضا واكثر ، على ان لا يستوثق من حقيقة الحواس . الحواس لا تعطي الضمان الكافي . انها خداعة ، ومن الحكمة ان لا نطمئن تماما الى ما يخدعنا ، ولو مرة واحدة ، في حياتنا .

يعترض على هذا بان تلك الاشياء الصغيرة جدا ، والبعيدة عن متناولنا ، تخدعنا بدون شك لانها مركبات. ولكن الا نقع على اشياء كثيرة اخرى لا نستطيع ان نشك فيها ، وان كنا نعرفها بطريق الحواس ؟ الا نقع على اشياء بسيطة ، واضحة ، لا تفكفك ؟ مثال ذلك . اني جالس ههنا قرب النار ملتحفا عباءة منزلي ، وقد مسكت جريدة بين يدي ، اقرا فيها الحوادث . هذه حالة بسيطة . ابمقدوري ان اشك فيها ؟ ابمقدوري ان انكر كون هاتين اليدين يدي؟ ... وكون هذا الراس راسي ؟... وكون هذا الجسم جسمي ؟... ابمقدوري ان ارفض كوني رينه ديكارت الجالس قرب النار المشتعلة في المدفئة ؟ ابمقدوري ان اشك في هذه الاحاسيس الواضحة ، البسيطة ، الا اذا اصبحت

كبعض المخبولين الذين اختلت اذهانهم ، فراحوا يؤكدون انهم ملوك ، في حين انهم فقراء ، وفقراء جدا ؟ ... وانهم يلبسون ثيابا موشاة بالذهب والارجوان ، في حين انهم عراة ؟ .. او راحوا يتخيلون ان لهم اجساما من زجاج. اجل ، اذا شككت في هذه الاحاسيس ، المتناهية وضوحا وبساطة ، لن اكون اقل خبلا من اولئك .

قد نعتقد ان ديكارت افحم . الواقع انه لم يفحم . قال يجب علي ان اعتبر ذاتي انسانا . الحق انني انسان مركب من لحم ودم . ومن عادة الانسان ان ينام ، وان يرى في احلامه الاشياء عينها ، التي يراها يقظا . انا اذن انام . وكم من مرة رايت ذاتي في المنام اني جالس ههنا قرب نار المدفئة ، ملتحفا عباءة منزلي ، وقد مسكت جريدة بين يدي ، اقرا فيها الحوادث ؟ وهل اعتقد ، في المنام ، اني انظر الى الجريدة بعينين نائمتين ؟ وان الراس الذي اهزه هو راس ناعس ؟ كلا لا اعتقد في المنام اني هذا . ومع ذلك اكون في سريري متجردا من ثيابي . عندما اطيل التفكير في الامر ، اتذكر اني كثيرا ما انخدعت نائما ، باشباه تلك الرؤى . واذ امعن في التامل ، حول تلك المظاهر ، ارى بوضوح انه ليس هنالك شارات يقينية ، نستطيع ان نميز بها اليقظة من النوم . وهل ثمة ما يمنعني من اقناع ذاتي اني نائم ؟ اذن لنفترض اننا نائمون . على ضوء هـــذا الافتراض ، تبين لنا رؤى كاذبة جميع الاحاسيس البسيطة من فتح العينين ، وهز الراس ، ومد اليدين . وتبين لنــا رؤى كاذبة ، ايضا ، اشياء حسية اخرى هي ابسط منها واشمل . هذه الاشياء الحسية المتناهية في البساطة ، هي الامتداد ، والكم ، والعدد ، والمكان ، والزمان ، والى ما هنالك من مفاهيم عقلانية واضحة . وبذلك يصبح العالم ذاته عرضة للشك فيه .

البـــرواز الثـــالث : العقـــل

هنـــا نلج اعوص مراحل الشك عند رينه ديكارت . هنـــا ننتقل من عالم الحس الى عالم العقل ... من عالم الغموض الى عالم الوضوح ... من عالم متحرك الى عالم ثابت . ان عالم العقل هو عالم المفاهيم البسيطة ... عالم البداهة . ولذا يصعب على الانسان ان يشك فيه . مثـــال ذلك . ان مجموع اثنين واثنين هو اربعة دائمـــا ســـواء في النوم او في اليقظة . ان اضلاع المربع لا تزيد علـــى اربعة ، سواء في النوم او في اليقظة . هنا يقوم ديكارت باخطر مغامرة وجدانية عرفها الفكر البشري . لقد شك حتى في هذه المفاهيم العقلانية . اما المبرر الـــذي حـــداه على الشك في العقل فهو التالي :

نلاحظ ان الوجود ، بمعنييه المادي والحسي ، هـــو المحك لجودة العقل... هو المعيار الذي تقاس به ، لنعرف ما اذا كان العقل صحيحا . الوجود ضابط للعقل . الوجود يحول العقلانيات من فكر شفافة الى وقائع كائنة . اما اذا انفصل العقل عن الوجود ، المادي والحسي ، فلا شيء يمنعه اذ ذاك من ان يفترض ما يريد . ان الذي يضمن لي ان العشرة اكثر من الثلاثة كوني لا استطيع ان احوش ، بيد واحدة ، عشر تفاحات ... في حين استطيع ان احوش بيد واحدة ثلاثا منها — او كوني لا استطيع ان آكل عشر تفاحات ... في حين استطيع ان اكل ثلاثا منها . لقـــد تدخل عنصر الوجود ، فاوضح لي ان العشرة اكثر مـــن الثلاثة . اما ان يتضح لي ذلك ، على صعيد الذهن فقط ، فهذا غلط .

الواقع ان الفكر ، على صعيد الذهن فقط ، يستطيع ان يفترض كل ما يخطر بباله اما فقد الوجود كضابط له ؟ لقد شك ديكارت في المادة والحس . وهما قواما الوجود . وبذلك حرم العقل اساسا كانزا . وها هو ديكارت مفلوش ، في فضاءات الفكر ، دون قيد ولا شرط . لقد اصبح قادرا على ان يشك ، فكرا ، في الحقائق العلمية . ومن يمنعه ؟ من يمنعه عن افتراض اثنين واثنين خمسة ؟ قد لا يكون ثمة ارض ، ولا سماء ، ولا جسم ، ولا شكل ، ولا لون ، ولا زمان ، ولا مكان ، ولا عدد ؟ اما رسخ في ذهني ، منذ زمن طويل ، ان الها قادرا على كل شيء ، هو الذي صنعنـــي وخلقني كما انا موجود . فما يدريني ؟ لعله قضى بان لا يكون هناك شيء من الاشياء التي تحيط بي ، ودبـــر مـــع هذا ان احس بتلك الاشياء جميعا ، فتبدو لي موجودة على نحو ما اجد ؟ اما ارى غيري يغلط في الامور التي يحسب انه اعلم الناس بها ؟ فما يدريني لعله قدر لي ان اغلط ، انا ايضا ، كلما جمعت اثنين واثنين ، او احصيت اضلاع مربـــع مـــا ؟

يبقى ان هناك من ينكر وجود الله . هنا ايضا لـــم يفحم ديكارت . لقد شطح بالافتراض الى ابعـــد حـــدود الافتراض . قال لنفترض ان الله غير موجود . نظل قادرين على الافتراض ، رغم ذلك ، ان شيطانا ماكرا ، خبيثا ، ساحرا ، يعبث بافكاري ، ويلهو بعقلي ، فيتدخل بشعوذته في كل مرة اجابه واقعا علميا ، بحيث ارى الباطل حقـــا والحق باطلا . وهكذا بان لديكارت ان لا شيء في العالم كائن على الاطلاق . لا سماء ، ولا ارض ، ولا جسم ، ولا عالم ، ولا اله . لقد انهارت جميع الكائنات ، من الخالق فما دونه ، تحت مطارق الشك . دكت جمـــيع الحسيات . والعقلانيات ، ومن بينها الله ذاته . اين اذن نقطة الارتكاز ، التي قال عنها ارخميدس ، لو تيسرت لي لزحزت العالم عن محوره ، ورميته في مكان اخر ؟

انـــا افكر اذن انـــا مـــوجود

هنـــا شعر ديكارت بحمى صاهرة تكويه . اين يجد موطنا لقدميه ؟ لكانه سقط في ماء عميق ، فهاله الامـــر هولا شديدا . لقد احس بانه واقف على ارض دلفانية . لم يعد قادرا ، بعد الان ، على تثبيت قدميه .

ثم ينبلج النور بغتة . لقد عثر ديكارت على نقطـــة الارتكاز ... عثر على الصخرة الواقية ... عثر على الذي لا يمكن افتراض الشك فيه . انه الشك ذاته . وكيف نستطيع ان نشك في الشك ؟ لو صح ذلك لتحطم الشك ذاته ، الذي قرر به ديكارت على ان يشك فـــي الماضي ، والحس ، والعالم . لو صح الشك في الشك ، لمـــا تمكـــن ديكارت من ان يشك ، اذ تستقيم الاشياء كلها منذ البداية. والشك فكر . انا اشك يعني انا افكر . « انا افكر » وجدتني لا يمكنني ان اشك فيها ، لاني بحاجة الى الفكر ، كي اشك في الفكر .. اي الى الشك كي اشك في الشك . وهل باستطاعتي ان افكر اذا لم اكن موجودا ؟ انا افكر اذن انـــا

موجود . ليفعل الشيطان الماكر ، بعد الان ، ما يشاء كي يخدعني . قد يخدعني في كل شيء ، حتى في الله ذاته ، الذي خلق الكائنات . ولكنه عاجز عن ان يوقف ، لدي ، الفكر الذي يفكر . . . اي الافتراض الذي يفترض . هنا لا استطيع ، حتى على صعيد الافتراض ، ان افترض انني لا افترض . امكان هذا الافتراض يصدر عن الافتراض ذاته . وهكذا لا يمكننا الشك في الفكر الذي يشك . مثل هذا الشك هو شك ايضا . . . هو فكر ، والفكر لا يبطل فكره ، هو يبطل غيره ، ولكنه عاجز عن ان ينسف قاعدته . انا افكر اذن انا موجود .

الجوهريـــة الديكارتيـــة

لنوضح ما يتصف به النهج الديكارتي . هذا النهج جوهري الـمـســاحب . اعني انه ذو اتجاه صاعد من الخـاص الى العام . . . من الموضوع الى المجرد . . . من الوجود الى الجوهر . لقد وضعت الديكارتية العالم الخارجي بـيـن هلالين (اي في غرفة انتظار) وراحت تحلق في الشاهقات، فوق الفوق ، حتى وصلت الى منتهى الشفافة الفكرية . . . الى الافتراض . على هذا الضـــوء ، نستطيـع القول ان الديكارتية (نهجا) هي عدوة التاريخ . عدوة المجتمـع . عدوة الجسم . عدوة العقل الذي يستند الى المادة ، كي يتحقق من صحة اسانيده . لقد اغمض ديكارت عينيه ، واصم اذنيه ، واوقف كل حواسه . محا من ذهنه جميع صور الاشياء ، او على الاقل اعدها باطلة زائفة ، ما دام الذهن قادرا بالافتراض على ان يمحوها دفعة .

هذا ما فعله ديكارت ، حين قرر ان يتحدث الى نفسه، وينظر الى دخيلتها ، في سبيل الاستزادة من معرفته لها . لم يفعل ذلك الا يقينا منه انه ليس تحت وطأة مجتمع ، وليس صابورية اعضاء ، وليس اثرا للطبيعة الخارجية . هو ليس شيئا من كل ما يمكن ان يتخيل او يتصور ، لانـه افترض كون هذه الاشياء غير موجودة . وقد وجد ، رغم ذلك الافتراض ، انه جوهر يفكر . . . انه وجود لا وجود له في وجودنا . وهكذا تظهر لنا الديكارتية جوهرية النهج في تعميرها للحقيقة .

لا شك في ان ديكارت عاد ، فارجع للوجود كثافته . نعلم انه الغى ، فيما بعد ، الهلالين اللذين طوق بهما الوجود، كي يعطله الى حين . لقد الغاهما ، ثم اغار مرة اخرى ، ومن شاهق الافتراض ، على العالم الخارجي . عاد ، فارجع لـه سماكته الكانزة . عاد ، فآمن باحاسيس الجسم ، ونواميس العقل . اجل ، عاد فآمن بكل هذه الافعولات ، بعد اطمئنانه اولا واساسا الى ان حقيقته هي في الجوهر . حقيقتـــه ليست في الوجود ، لان الجوهر هوالضامن الاوحد لكل ما دونه . قد يعطل الوجود . الدليل ؟ هو الافتراض ذاته . ولكن ما من قوة تستطيع ان تعطل الجوهر . ذلك لاننـا بحاجة الى جوهر لنعطل الجوهر . فالذي يمكن تعطيله هو شيء عرضي . . . هو شيء عارض . والذي لا يمكـن تعطيله ، حتى افتراضا، هو شيء غير عارض. . . هو محض

الحقيقة اذن ، من حيث هي ما هي ، ليست فـي الوجود . الوجود خاص ، والخاص وليد زمان ، ومكان ، وشكل ، ولون ، يمكن افتراض الشك فيها . الوجـــود الخاص هو انا ، وانت ، وهو . ونحن كلنا زائلون كوجودات. الوجود فعل يزاوله الجسد ، في بيئة معينة . هو انضواء في المجتمع . هو مواظبة بدنية من لحم ودم . فمن طلب الحقيقة ، كان عليه ان يبتعد عن كل هذه الوجـــودات، المتقلبة ، ليتبخر في مدى الجوهر العام . الجوهر العـام ليس انا ، ولا انت ، ولا هو . ليس فعلا معينا ، يزاول ، بل حالة مطلقة تشاهد . وهكذا لا تعود غاية الانسان ان يفعل مسؤولا ، في مجتمع خاص ، وضمن تاريخ خاص ، وفي سبيل قومية خاصة . غايته ان يشاهد ، وان يتامل وان يعرف . لقد رفعنا ديكارت الى اجواء مريخية ، تبخر فيها كل وجود خاص . لقد برش الوجود ، طبقة طبقة ، حتى شف ولطف ، فاصبح اثيرية شفافة . هذه الاثيرية جوهر يفكر به مثاليا ، لا وجود يعاش فيه واقعيا . ولذا يمكن اعتبار ديكارت زعيم الحركة الجوهرية في الفلسفات التي اتت بعده .

قال ، في القسم الرابع من كتابه « مقالة في المنهج » ما يلي . . . لما رايت ان حواسنا تخدعنا، احيانا، افترضت ان لا شيء هو بالواقع على الوجه ، الذي تصوره لنا الحواس وكذلك ، لما رايت ان هناك رجالا يخطئون في استدلالاتهم (حتى في ابسط المسائل الهندسية) ، ويأتـــون فيهـــا بالمغالطات ، وقد كنت عرضة للزلل في هـــذا كغيري مـــن الناس . . . قلت لما رايت ذلك اعتبرت باطلا كل استدلال كنت احسبه من قبل برهانا صادقا . واخيرا لما رايت ان جميع الافكار ، التي تعرض لنا في اليقظة ، قد ترد علينـــا في المنام (دون ان يكون واحد منها صحيحا) افترضت ان كل الامور التي دخلت عقلي ، لم تكن اصدق من ضلالات احلامي . ولكن سرعان ما لاحظت — وانا احاول ان افترض على هذا المنوال بطلان كل شيء — انه يجب ضرورة ان اكون (انا صاحب هذا الافتراض) شيئا من الاشياء . ولما رايت ان الحقيقة التالية « انا افكر اذن انا موجود » هي من الرسوخ ، بحيث لا يزعزعها افتراض اعظم الشكاكين ، مهما كان فيها من شطط ، فقد حكمت بانني استطيـــع اتخاذها ، مطمئنا ، كمبدأ اولي للفلسفة التي كنت ابحث عنها.

ثـم امعنت النظـر في ما كنت عليه . مـــاذا رايت. رايت انني قادر على ان افترض كل شيء . . . وهكـــذا افترضت انه ليس لي اي جسم ، وليس هناك اي عالم ، او اي حيز اشغله . ولكن لم استطع الافتراض انني غـيـر موجود . ان شكي ، في حقيقة الاشياء الاخرى ، يوجب جبرا (بلغ البداهة واليقين) ان اكون موجودا . امـــا لـــو وقفت عن التفكير ، وكانت مخيلاتي الباقية حقة ، فمـــا استطعت الاعتقاد انني موجود . اذن انا جوهر تقـوم طبيعته ، او ماهيته ، على انه يفكر . هو لا يحتاج فـــي وجوده الى اي جسم ولا يمت بصلة الى اي شيء مادي . يعني ان الانا (اي النفس التي انا بها ما انا) تتميز عـــن الجسم كل التميز . لذا كانت معرفتنا بها اسهل . لـــو بطل وجود الجسم ، اطلاقا ، لظلت النفس موجودة . .

هذا مصاص الديكارتية . ولا ريب من انها نـــعرة ، قاسية ، في خاصرة الماديات ، قبله وبعده . الديكارتيـــة تثبيت نهائي لروحية الانسان . الانسان ، جوهرا ، روح . وقد تكون شدة رغبة ديكارت ، في روحنة الانسان ، هي التي جنحت به عن شواطيء الوجود المادي . لذلك بالغ في

اقصاء الوجدان عن كثافة التحت .

ولكن هذا لا يعني ان ديكارت جهل اثر الجسم في الحالات النفسية ، وأثر العالم الخارجي في مربعات الضمير . لقد ظن ان البشرية ستميت الموت ، في المستقبل وبفضل الطب . الا ان هذا لا يمنع ، في رايه ، من ان يكون جوهر النفس لا وجوديا ، اي في غير انجسم والمادة . ان الافتراض يعطل كل شيء ، وبقوة جارفة ، غير انه لا يعطل كونه يفترض ... كثيرون هم الذين أرادوا ان يستخرجوا من كتب ديكارت خطوط فلسفة مادية . ونحن نؤكد وجود هذه الخطوط . اليس هو الذي مدمك العلم على اسس ايجابية ، فكشف الغطاء عن الهندسة التحليلية ؟ لا غرابة ، والحالة هذه ، ان يكون قد اوضح ما للجسم من اثر وتأثير في الحالات النفسية . ولكن هذا لا يخفف اطلاقا من نزعته الجوهرية . انه جوهري بالاساس .

اذن

لنعد الى « انا افكر اذن انا موجود » . لقد ظن الكثيرون من نقاد ديكارت ان الكوجتة عنده قياس ، استخرج فيه الوجود من الفكر بطريقة تسلسلية . وهكذا يتمتع الفكر باسبقية في الزمن ، كي يصير علة لمعلول هو الوجود. كل ما يفكر هو موجود (تلك هي القضية الكبرى) . انا افكر (تلك هي القضية الصغرى) اذن انا موجود (تلك هي النتيجة) . هذا ما اعتقده الكثيرون من الانتيديكارتيين. لذا انهارت على ديكارت مطارق النقد ، لانه يصعب جدا (ان لم يكن مستحيلا) ان يستخرج الوجود من الفكر . كيف ننتقل انتقالا حياتيامن فكر سابق الى وجود لاحق ؟

الواقع ان ديكارت لم يقصد بذلك وضع قياس ، يقيم فيه سببية بين (انا افكر) و (انا موجود) . ان « اذن » في ، انا افكر اذن انا موجود ، ليست شرطية . هي لا تعني ربط الوجود والفكر بصورة علية . الحق انه لا يوجد بينهما ارتباط جبري ،كي ننتقل انتقالا حياتيا ، من فكر سابق الى وجود لاحق . صلب الكوجتة ، في نية ديكارت ، الفكر والوجود معا . لذا كانت عبارته المشهورة ، تعبر عن حدس ، لا عن قياس . والحدس لا ينبثق من حركة عقلانية . لقد شك ديكارت في العقلانيات ، لانها تقوم اخيرا على التحليل ، والعدد ، والنسب . وهي كلها مفاهيم يمكن الشك فيها . ان الفكر الذي عناه ديكارت في الكوجيتو ، هو رؤية مباشرة . هو انقشاع مفاجىء . هو انبلاج فوري .

اما الخطأ فمن اللغة التي افسدت واقع الحدس . لقد جاءت « اذن » وسط « انا افكر » و « انا موجود » فظن ان هناك تعاقبا تسلسليا في الزمن ، وتعاقدا ارتباطيا بين الفكر والوجود . ولا نجد ادل على حدسة الكوجتة في نية ديكارت ، من التنقيح الذي ادخله على تلك العبارة. اصبحت ، فيما بعد ، هكذا ... انا افكر ، انا موجود . ومن هنا سخط ديكارت على اللغة ، التي اعتبرها واسطة لا غاية، وواسطة ناقصة مبتورة . ان اللغة لا تستطيع ، في نظره ؛ ان تعبر عن نفناف الفكر المتعالي . هي عاجزة عن اظهار تمنماته بينها وبين الانية ، المفكرة الموجودة ، هوة عميقة . ولهذا نراها تشوه وجه الحقيقة ، في كل مرة يحاول بها الانسان ان يخرج اعماقه كلمات ملفوظة مكتوبة . وقد حرفت مقصد ديكارت ، ههنا ، فأثارت الاضاليل ، وجعلت من الحدس قياسا . « انا افكر اذن انا موجود » تعني « انا افكر موجودا ، اذن انا موجود مفكرا ». وبذلك لا يعود من فاصل بين الوجود والفكر ... لا يعود ثمة من تعاقب تسلسلي ، ولا تعاقد ارتباطي . ان الفكر يستلزم ان يكون موجودا ، كما يستلزم النور ان تكون الاشياء مضاءة . الاشياء مضاءة بحكم النور الواقع عليها . وهكذا الفكر هو موجود بحكم فكره. ان وجود الجوهر ، الذي تحدث عنه ديكارت ، يقوم على ان يزاول الشيء ما هو موجود له ، اصلا ، اي على ان يقوم بوظيفته الاساسية . وجود القلم مثلا ، قائم في الكتابة . القلم الموجود هو القلم الذي يكتب. وجود الساعة ، مثلا ، قائم في التوقيت . الساعة الموجودة هي الساعة التي توقت . فاذا بطلت كتابة القلم ، بطل وجوده حتما . واذا بطل توقيت الساعة ، بطل وجودها حتما .

جلي ان الوجود المعني ، ههنا ، ليس الجماد الذي تتلبد ذراته ، بعضها فوق بعض . الوجود هو جوهر يقوم بما هو موجود لاجله . وهكذا الفكر . مثله كمثل القلم والساعة . وظيفته تقوم على ان يفكر . وهو يفكر دائما. اذن هو موجود دائما . هو موجود بمقدار ما يفكر ، او في الحين عينه ، الذي يفكر به . وهو يفكر بمقدار ما يوجد . او في الحين عينه ، الذي يوجد به . فحوى هذا ان الوجود والفكر متلازمان ، متوازيان ، متكافئان . مهما يكن من امر ذلك المالوش الاكول . اعني ذلك الشيطان الماكر ، الخبيث، المخادع ، الساحر ، الذي يستطيع ان يعطل كل شيء يخطر بباله، فيزيد ، او ينقص او يغير ، او يستحدث.. فهوعاجز عن ان يوقف الفكر في تفكيره الدائر حول فكره . لن يقف الفكر عن التفكير . لن يتعطل الفكر . الفكر اذن هو الاصل في الوجدان . انه يلاحف الوجدان في صميمه ، بل هو ذاته صميم الوجدان ، ولذا كان بمنجى من الشك ، مهما امتد الشك بشكه في الامور الاولية ، بساطة الوجدان ، والحالة ذه ، او لطافته ، او محضه ، او بحت بحته ، انه فكر لا امتداد له . هو جوهر هفهاف ، نفناف ، لا يمت بعرقالى ما هومن صفات المادة، كالطول، والعرض، والعمق، والشكل، واللون، والسماكة، والثقل . انه بياض رفيه .

انا افكر انني افكر

نتساءل الان عن الفكر الذي عناه ديكارت . ما هو هذا الفكر ؟ نلاحظ ان الفكر فعل وجداني متعد . فكر فعل متعد . والفعل المتعد يحتاج الى مفعول به . الفكر اندفاع نحو محمول . يقال فكر به ، وفكر فيه ، ولا يقال فكر فقط . يعني ان الفكر لا يبقى داخل ذاته ، بل يتجاوز ذاته في سبيل موضوع له. . فعل التفكير لا يلزم ذاته . هو اندفاق الى الخارج . ومن هنا ضرورة ايجاد مفعول دائم للفكر . فكر فعل ينبغي لفعله ان يقع على شيء ، قد يكون في الخارج البراني ، كما في « فكرت باخي » او « فكرت بالطاولة التي اشتريتها امس » او « فكرت

كمال يوسف الحاج

[التتمة في صفحة ٦٩]

غانية ساعة الراحة

٥

مالت على ثدي ألوف
تسأله هل تلف
من زور اغماض العزوف
أو غيظ عزم الكلف
أو فن خطاف القطوف

*

من زور اغماض العزوف
يلم تحت الهدب
حسرة جوعان أنوف
تفيض ناراً تذب
ولهى الى الضلع العطوف

*

من غيظ عزم الكلف
أناخ مفطوم الشباب
يحدوه سوط اللهف
الى تهاويل السراب
تسقيه معنى الشظف

*

من فن خطاف القطوف
رشاف حسن خدر
خلف مريات السجوف
أفئدة ينعصر
فيها عناقيد الحتوف

القاهرة بشر فارس

بقلم راسم رشدي

رحمة بن جابر

الزمن : عام ١٨٠٠ والمنظر : ست سفن ضخمة على ظهر كل منها ٣٠٠ رجل تجوب مياه الخليج العربي باحثة عن صيد ...

وعلى ظهر احدى هذه السفن رجل هزيل الجسم ، قبيح الوجه ، في نبرات صوته غلظة وخشونة ، وفي عينه الوحيدة الباقية قسوة وشراسة وكان لا يستر جسمه الا قميص لا يخلعه الا اذا رث وبلى . فاذا خلعه بدت ندوب جراح تزيد عن العشرين عددا ، الى جانب ستة ندوب في وجهه آخرها لم يجف بعد ..

كان كل اهل منطقة الخليج يعرفونه اذا راوه ، وكان ربابنة السفن يعرفون وجهه ، ويميزون صوته ، ويرتعدون فرقا لمجرد ذكر اسمه .

ظل رحمة بن جابر ، القرصان الشهير ، فارضا سطوته على مياه الخليج مدة تزيد عن العشرين عاما ، يبطش باصحاب السفن ، ويغزو الموانيء ، ويأخذ لنفسه ما شاء ان يأخذ ، دون ان يجرؤ على اعتراض سبيله احد . ولا يعرف احد متى ولد رحمة ، ولا اين ، ولكن الذي يعرفه الجميع انه من بلدة القرين (الكويت)، وكان يتيم الاب ، فانصرف الى الشاطيء حيث امضى سني حداثته الاولى بين صناع القوارب ، يستمع الى احاديثهم ، وينمو ويترعرع على اصوات مطارقهم وهي تهوي وترتفع بنغمة ايقاعية على هياكل السفن ، تدق مسمارا ، او تدفع بحشوة ...

كان هواء البحر يطرق خياشيمه ، ويداعب انفاسه ، فأحس بالحنين الى ذلك المجهول الواسع ، ذلك العالم اللامتناهي ، وكان يسمع من البحارة اقاصيص مغامراتهم في الهند والشرق الاقصى ، ويشاهد اكداس الحاصلات التي كانوا يعودون بها بعد كل سفرة . وكان يخرج في موسم اللؤلؤ من كل عام مع اهل البلد ، ينتظرون وينتظر معهم عودة سفن الصيد ، فاذا اطلت السفن بعد غياب شهور في عرض البحر انطلقت الزغاريد من حناجر الامهات والاخوات والزوجات ، واطلقت البنادق في الهواء ابتهاجا بعودة الغائبين ... كل ذلك ، نفر رحمة من البر ، واصبح لا يطيق الصحراء وجوها اللاهب ، واصبح يتصور الكويت وصحرائها سجنا ضيقا يكتم الانفاس ، فصمم على الانفلات من هذا السجن ...

وفي ذات ليلة ، عندما ارتفع مد الخليج ، واصبح صالحا لاقلاع السفن ، واتته الفرصة . كانت احدى السفن الكبرى تستعد للسفر الى بومباي محملة بحاصلات الصحراء وخيرات الخليج . فخلع رحمة قميصه ، والقى بنفسه في الماء ، وتسلل تحت جنح الظلام الى السفينة الضخمة دون ان يراه او يشعر به احد . واقلعت السفينة ، وعلى ظهرها رحمة ، ولكنها لما عادت بعد ثلاثة اشهر لم يكن رحمة ممن هبطوا منها ...

انقطعت اخبار رحمة بعد ذلك ، ولم يعرف بما حدث له احد ، حتى ظهر فجاة في الخليج ، يقطع الطريق على السفن ، وينهب ما فيها ، ويقتل بعض رجالها وفي مطلع القرن التاسع عشر كان سيد مياه الخليج بلا منازع

ولم يكن رجال رحمة باقل قسوة منه ، فكان معظمهم ممن اشتراهم بماله من افريقيا . وكان « جيشه » الصغير هذا لا يقل عن الالفين عددا ، يعرف كل واحد منهم ، ويملك كل واحد منهم ، يتصرف بحياتهم كما يشاء ، ويريحهم من الحياة متى شاء . كان سلاحهم البنادق والخناجر والسيوف ، فاذا قتل منهم عدد عوضه فورا بعدد مماثل من افريقيا . كانوا مجرد ادوات لتنفيذ مشيئته ، وفرض سطوته ، واعلاء كلمته ..

وكان رحمة ، الى قسوته التي كان يمعن فيها احيانا الى حد التلذذ بقتل اعدائه بيديه بعد استسلامهم ، كريما مع الصغار ، ينفق الساعات في ملاطفتهم والحنو عليهم ، ويغدق عليهم العطايا والهبات ، وكانه يعطيهم من الحنان والمال ما حرمه هو في طفولته وكان الى جانب غلظته متواضعا ، لا يختلف في لباسه او طراز معيشته عن احد من رجاله ، حتى انه كان يصعب على الغريب تمييزه من بينهم

مرت السنوات ، وطابت الحياة لرحمة حتى زين له جبروته ان يؤسس لنفسه ملكا على البر كما اقام لنفسه مملكة فوق البحار . فراح يحالف هذا ، ويناوىء ذاك ، واخذ يحيك المؤامرات والدسائس طمعا بمشيخة او ب « عرش » صغير ... بدا بمحالفة الوهابيين ضد شيوخ البحرين ، ومع انه كان للبحرين اسطول قوي مرهوب الجانب ، الا ان تجارتها وثرواتها كانت مطمع انظار رحمة . فلما اغار سلطان مسقط على البحرين عام ١٨١٦ وانضم الوهابيون الى شيخ البحرين ، نقض رحمة تحالفه مع الوهابيين وانضم الى اعداء اعدائه ... ولما حارب المصريون الوهابيين ايام محمد علي عرض عليهم رحمة معونته ، وفعلا هاجم الوهابيين وكافاه المصريون باقطاعه سواحل الدمام حيث ابتنى لنفسه قلعة جعلها قاعدة لامارته الجديدة ...

وكأنه لم يكف رحمة ترسيخ قدميه على شواطيء الخليج العربية ، فعمد الى اخضاع مدينة ابي شهر على الساحل الفارسي ليتخذها قاعدة لعملياته البحرية . فكانت سفنه تخرج من احد المينائين وتسطو على سفن الكويت والبحرين والبصرة ومسقط وابي شهر ...

غير ان رحمة لم يستطع مناواة الوهابيين طويلا ، وكان هجومه على البحرين ، بالاشتراك مع سلطان مسقط ، نقطة التحول في تاريخه الحافل . ففي سنة ١٨١٧ استعاد الوهابيون الدمام ، ونسفوا قصره ، واضطروا رحمة الى اللجوء الى فارس ولكن رحمة لم ييأس ، وتمكن من استعادة الدمام في العام التالي ١٨١٨ ، فعاد الى حبك المؤامرات واثار شيوخ الخليج بعضهم على بعض . ولكنه ما لبث ان اصطدم مرة اخرى باعدائه القدماء ... شيوخ البحرين ...

ففي امسية يوم من ايام سنة ١٨٢١ ، خرج رحمة في احدى سفنه باتجاه البحرين بحثا عن صيد جديد . كان بحاجة الى بعض المال لشراء المزيد من العبيد لتعزيز جيشه وسلطانه في الدمام خشية عودة الوهابيين للانتقام ، وكان قد اعتاد كلما احتاج

حديث الربيع

زرع ديك جيراننا اليوم ،
كل صياحه في نافذة غرفتي ..
فخرجت الى الحديقة
احمل صورتك في جيبي ..
كانت الازهار تمزق قمصان نعاسها
وترميها باهمال على هامات اوراقها
ومشيت على جثث الحشائش
كالآهة الحائرة
حتى وصلت شجرة اللوز ..
فاخرجت صورتك وبسطتها على الارض
ثم اخذت انظر اليها
حتى اتحدت عيناي معها ،
في اروع صورة للعناق ..
مرت امامنا نسمة
مدعوكة برائحة الحبق
وقالت : صباح الخير ..
وحوم حسون حولنا
يخفق الخجل في حنجرته
وقال : ما احلى الحب ..
وسرت في جسدي رعشة دافئة
فلم اتمالك اعصابي يا حلوتي ..
فاخذت صورتك المطيبة بالحبق
واغاريد الحسون ..
ثم اودعت ذاتي على فمك قبلة
تحيا على شفتيك الى الابد !..

ابتسمي يا فراشتي .. ابتسمي
سأسرق لك اغنيتك المفضلة
من صدر الراعي الصغير
والرقصة الجميلة
من كوفيته المرقعة الفضفاضة
والبسمة البريئة من شفتيه ..
وسأغزو في شرود الليل عش العصفور
فاقلع من كل لون ريشه ..
ومن كل نبضة دفئا ..
وسأختبىء بين طيات ثياب الوردة ،
فاكشف لك حقيقة غزل الطل بها
وسر ينابيع العطر تخضب احمرارها
وساغير على العيون السبلاء
فازرع فيها النعاس
واحصد اهدابها فرادى
لانسجها لك عباءة
لا انعم ولا ابهى ..
وساشتري لك من الليل
طوقا من النجوم
تزنرين به عنقك المعري ..
وساستعير من الملائكة اجنحة لنا
فنطير معا الى بلاد القطا ،
لنرضع مع فراخها
لبن الحنان والمحبة !

سوريا - ضهر صفرا — **غسان طربيه**

الى شيء ان يخرج الى عرض البحر يأخذ من سفنه وخيراته ما يشاء .. ولكنه كان في ذلك اليوم – على غير عادته – منقبض النفس ، ففارت ندوبه اكثر من كل وقت مضى ، وتقلصت عضلاته ، ولم تشع عينه المفردة ببريقها المخيف المعهود ... ومع ذلك فقد خرج الى ظهر السفينة واحتضن احدى صاريتيها بذراعه اليسرى بينما اراح يده اليمنى على مقبض خنجره المرصع المشدود الى وسطه ، وراح يرقب الافق البعيد بحثا عن فريسة . وفجاة ، لاح امام عينه شبح سفينة ، وكان نور الفجر قد اخذ يشق طريقه وسط حجب الظلام ، فحدق النظر مليا ، وراح يصدر الاوامر لرجاله بصوت اجش لم يعهدوه فيه من قبل . كانت السفينة القادمة ترفع علم البحرين .. ولكنها لم تكن سفينة تجارية كما كان يرجو ، بل كانت سفينة مقاتلة، تمخر صفحة الماء بخيلاء وكانها تتحداه وتدعوه لمنازلتها ...

هل يجبن رحمة ويحاول الفرار ، وهو الذي لم يعرف الهزيمة في حياته؟ واذا فر فماذا يقول عنه الناس؟!

ولم يتردد رحمة طويلا ، فخرج صوته كالهدير وهو يامر رجاله بنشر قلوع السفينة الى آخرها والاستعداد لقتال مرير . اما هو ، فقد وقف عند مقدمة السفينة وقميصه يخفق في الهواء وكانه علمه الخاص ...

دارت المعركة رهيبة طاحنة ، واقتتل رجال السفينتين قتالا مرا لم يعرف رحمة مثله من قبل . حاول رحمة كل شيء ، وافرغ في تلك المعركة كل ما في جعبته من حيل القتال وضروبه ، ولكن رجاله كانوا يتساقطون كالفراش الواحد تلو الاخر ، واصيب هو بجرح غائر في وجهه واخر في ساقه . فلما ادرك ان ساعته قد دنت ، وانه قد خسر المعركة ، عمد الى كمية من البارود نسف بها سفينته ، فتطايرت اجزاؤها في الهواء مختلطة باشلاء من كانوا عليها ، قبل ان تهوي في اليم ، وتصبح طعاما للاسماك .

تلك كانت خاتمة حياة ذلك الصبي اليتيم ، الذي نشا على شاطىء الكويت بين احواض السفن على صوت المطارق واناشيد البحارة ، والذي ضاقت به ارض الصحراء فاحتضنه البحر حيا وميتا..

راسم رشدي

نداء

هتف الشوق ونادتكَ المنى ... يا حبيبي كيف لم تسمع ندائي
أنت جوعان فقم غذّ الهوى ... وأنا أشكو من الحسن امتلائي

لك قطَّرتُ السنا من مقلتيَّا ... لك خمَّرتُ الجنى في وجنتيَّا
لك عتَّقتُ الشذا في شفتيَّا ... خمرة ارث الهوى من أبويَّا
من عروق الخلد فارت في دمائي ... عفَّةَ المغرس عصماء الاناء
صوّحت في ترب عدن ، ونمت ... غضَّة الاعراف في طيني ومائي
طفحت كأسي وناداك الندى ... يا حبيبي كيف لم تسمع ندائي

يا حبيبي ها أنا بنت جمالي ... توأم الفتنة والسحر الحلال
لا تسل في الحبّ عن قومي وآلي ... جئت في الحسن كما شاء خيالي
واشتهى زهوي وتاقت خيلائي ... فتشهَّاني خيال الشعراء
ومشى كل فؤاد مشعلا ... يحمل النور أمامي وورائي
أين غيَّبت الهوى عن موكبي ... يا حبيبي كيف لم تسمع ندائي

يا حبيبي لا هوى الا هوايا ... أنت ضوَّأت بعينيك حجايا
أنت جنَّحت بجفنيك رؤايا ... أنت لي في الحب لي دون سوايا
أنا صوّرتك من لون اشتهائي ... أنا لمنك من عليا رجائي
وتولاك خيالي حاديا ... فتبنَّاك حنيني ووفائي
يا ابن أشواقي ألا تعرفني ... يا حبيبي كيف لم تسمع ندائي

اكسني الحلية من دون الملاح ... عقدي اليمنى ويسراك وشاحي
هات عينيك ، فعيناك سلاحي ... بهما أشبعت قلبي من جراحي
فانتشى عجبي ومادت كبريائي ... وسما حبي على حب النساء
من دم العشاق غذّين الهوى ... وأنا غذّيت حبّي من دمائي
صفّق القلب وناداك الجوى ... يا حبيبي كيف لم تسمع ندائي

أيها الحبُّ أمط عنك الرياء ... أنت في قلبي تأجَّجت اشتهاء
وعلى وجهي توهَّجت حياء ... وتمشيت بمحرابي دعاء
فتفشيت حنينا في دعائي ... فتلاشيت على سمع السماء
وتبلورت بعينيَّ منى ... فتكسَّرت دموعا في بكائي
وتعاليت نداء من فمي ... يا حبيبي كيف لم تسمع ندائي

فارس سعد

الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين

بقلم سامي نسيب مكارم
ماجستير في الادب العربي

o O o

الشعراء المحافظون

وهكذا وجد في لبنان فئة من الشعراء المخضرمين ، هم من مدرسة محمود سامي البارودي وشوقي وحافظ ، فئة حافظت على القديم ، وتثقفت بالثقافة العربية القديمة ، ونحت منحى شعراء العرب القدامى ، من جاهليين واسلاميين وعباسيين ، فارجعت الى اللغة العربية قدسيتها فاذا بشعرها فصيح العبارة ، متين السبك ، قوي التركيب

من هذه الفئة نرى ان امين ناصر الدين والاميرين نسيب وشكيب ارسلان يمثلون هذا المنحى اصدق تمثيل لما في شعرهم من قوة التعبير وبلاغة في الاداء ، الى جنب الشخصية الاصيلة والمعنى المبتكر .

لقد كانت هذه الفئة امتدادا لشعراء اواخر القرن التاسع عشر الذين دابوا على النسج على منوال القدماء ، وعلى الاحتذاء بالشعر القديم .

امين ناصر الدين

كان امين ناصر الدين ١٨٧٣–١٩٥٣ لغويا مدققا فضلا عنه شاعرا . له معجمان في اللغة هما « هداية المنشىء » و « الرافد » ، وله « الثمر اليانع » وهو كتاب في الصرف والنحو ، وله « دقائق العربية » وهو كتاب يبحث في دقائق اللغة .

فلا عجب اذن ان يدافع امين ناصر الدين ، وهو هذا اللغوي المدقق ، عن اللغة دفاع المستميت ، وان يكون شعره بليغا فصيحا ، متين السبك ، جزل اللفظ . فاللغة عنده عنوان القومية ، وعنوان العزة :

لكل قوم لسان يعرفون به ... ان لم يصونوه لم يعرف لهم نسب
وان موطن عرب يرطنون وان ... علت مبانيه لهو الوطن الخرب
لن يدرك المجد شعب ماله لغة ... تحوطها دولة اسيافها قضب
لها حماة على استقلالها غير ... وجحفل زائد عن حوضها لجب (١)

وكان كلفا بالادب القديم ، شغوفا بالسبك الجزل . احب من الجاهليين اكثر من احب عنترة ، لما في شعره من قوة التعبير ، وصفاء الخيال ، وعلو النسج ، والسلاسة وعدم الاسفاف ، واحب من الاسلاميين جزالة اللفظ وسعة الخيال وفضل من العباسيين ابا تمام والبحتري والمتنبي والشريف الرضي واضرابهم لما في شعرهم من بلاغة رائعة ، وفصاحة صافية ، ونفس طويل ، ولفظ جزل ، وتركيب متين .

لا يقتصر الشعر في راي الامين على جودة المعنى ؛ وانما الشعر هو ما كان جيد المعنى والمبنى على السواء . فالشعر انما هو كالثوب ، ان لم يكن مفصلا احسن تفصيل، فليس بالثوب الجيد ، مهما يكن جيد النسيج . او كما قال:

ما الشعر الا قواف راض جامحها ... غمر البديهة فحل راسخ قدما
صانت جزالة مبناها معانيها ... عن ان يلم بها فهم شكا وصما
تمر الفاظها بين الشفاه كما ... يمر صافي الطلا بالمسك قد ختما
يكاد ينشدهن الفجر متخذا ... لنفسه من اقاصي الرياض فما (٢)

ففي الكلام الجزل ، عند الامين ، والوزن المتين والقافية المرنان ، من حسن الوقع ، والاثر في النفس ، ما يضاهي جودة المعنى ، ورقة المدلول . وقديما قيل « وان لمن البيان لسحرا » . ولذلك عمد امين ناصرالدين ان يكون في شعره بدوي الديباجة ، متين القافية قوي التركيب .

سلوا ابدا عني القوافي تجبكم ... باني ابو ابكارها حين تنسب
اقلدها الدر النضيد فتزدهي ... والبسها الوشي الانيق فتعجب (٣)

وهو يفخر بجاهلية شعره فاسمعه يضبف :

فلو ان في ايامنا جاهلية ... لابصرت اشعاري على البيت تكتب

وقد اورثه تحكمه في اللغة نضجا في العبارة، ومقدرة فائقة على النظم ، دون اي تكلف او عناء .

كان امين ناصر الدين يؤلف مع الارسلانيين في لبنان، والبارودي وشوقي وحافظ في مصر حلقة متينة من الشعر المتين ، همها ارجاع الشعر الى ما كان عليه قبل عصر الانحطاط . فاتخذوا الشعر العباسي اماما ، ياتمون به ، ويهتدون بهديه ، فرووه وحفظوه ، وتثقفوا ثقافة عزبية خالصة ، كانت ان طغت على تثقفهم الضئيل باداب الغرب، فغدا شعرهم ميالا الى القديم اكثر منه الى الجديد .

على ان ذلك لا يعني انهم كانوا مقلدين للقدماء تمام التقليد ، او ان شعرهم كان كشعر ادباء النصف الاول من القرن التاسع عشر ، عبارة عن اجتراء لما جاء به الاقدمون . فانهم لم يحافظوا الا على جزالة الاسلوب ومتانة الشكل ، اما ما عدا ذلك فانهم كانوا بيني الشخصية ، مستقلي التفكير، مجددين في المعاني ، وان كانوا قد استقواكثيرا من الاقدمين

لم يفت امين ناصرالدين الاغراض المستحدثة ، ولم يقتصر في شعره على المدح والهجاء والرثاء والتشبيب والفخر والوصف ، وان كان قد جلى في هذه الاغراض واجاد ، انما نظم القصة الاجتماعية ، فامتاز بتصويره المشكلات الاجتماعية

---

(١) امين ناصر الدين : دقائق العربية ، ص ٧ (٢) امين ناصر الدين : الالهام ، ص ١١٥ (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ (٤) امين ناصر الدين :

وتحليلها الدقيق . ولنا من قصائده « امام المرآة » (٤) والمحمدي والمسيحية (٥) و « هند الخائنة » (٦) خير مثال على قصصه الاجتماعي . وقد نظم المسرحية الشعرية وله فيها تمثيليتان هما « غرائب الظلم » وقد نظمها عام ١٩٠٧، و « الوصي » . وله ايضا « يوم ذي قار » وهي مسرحية شعرية ونثرية ، كما انه كتب مسرحيتين نثريتين هما « عاقبة الخداع » و « الحكومة الظالمة » .

وعندما يحلل امين ناصر الدين المشاكل الاجتماعية والنفسية ، فانما يحللها تحليل ذي البصر الثاقب . ويمتاز شعره برسالته الاجتماعية والاخلاقية والتفهم الدقيق لمشكلات الانسان والمجتمع . وللشاعر رسالة سامية في نظره ، يجب ان يقف حياته عليها ، فلا يقول الشعر الا في انبل الاغراض . يحض على الفضائل والقيم ، ويدعو الى المحافظة على العادات الشريفة والتقاليد ، ويرغب في المزايا المحمودة من حب للاوطان وتشبث بالاداب ، وحفاظ على المبادىء . وبعبارة موجزة كان لشعر الامين رسالة اجتماعية اخلاقية وقد اداها احسن اداء . ومما قاله الامير شكيب ارسلان فيه : « انه لم يشب ملكته الشعرية ومنزلته اللغوية العالية بشيء يخالف وجدانه ويجد فيه الغامز مغمزا كما يحصل لكثير من الادباء الذين يتقلبون مع ريح الحوادث ولم يحمل نفسه ولا مرة على شيء لا تطيب به بل بقي هذا الامين طول حياته امينا لعقيدته ثابتا في خطته لا يحيد يمنة ويسرة عما يوحي اليه ضميره » (٧)

لقد كان امين ناصرالدين كما اراد افلاطون ان يكون شعراء جمهوريته .

كان الامين ناقدا اجتماعيا امتاز بدقة التصوير ، وسعة الخيال ، وصدق العاطفة ، تفهم آلام المجتمع فصورها أدق تصوير ، وحفل ديواناه « صدى الخاطر » و « الالهام » بكثير من القصائد الاجتماعية والانتقادية والاخلاقية ، كما حفلا بكثير من الوطنيات والحكميات . اما ديوانه « الفلك » الذي لما يتسن له الطبع ، فيتضمن اخر ما نظم من الشعر الاجتماعي والاخلاقي والانتقادي والوطني .

وقد امتاز الامين كما قلنا من قبل بدقة الوصف ، واضفى حسن السبك وقوة التعبير ومتانة اللفظ على الوصف الدقيق ، والتصوير العميق ، والمعاني المبتكرة ، فخامة ووقعا حسنا على السمع . فاسمعه في رثاء شوقي يقول :

نعتك لهذا الناس مصر وانما   نعت علم الفضل الذي كان راسيا
نعتك كما تنعى السماوات بدرها   اذا ما راته ليلة التم هاديا
نعت شاعر الوحي الذي عطلت له   واصبح فيها مهبط الوحي خاليا
نعت ادبا في الارض اسرى من الضيا   اذا صدع الصبح المبين الدياجيا
نعت شعر جيل واضح النهج رائقا   تنضد في سمط البيان لاليا
رصينا نقي المستشف مسلسلا   كما سال فوق الفضة الماء صافيا
يهز الالى يتلونه فكان في   تفاعيله للكهرباء مجاريا

الى ان يقول :

وكنت متى يتل الملائك آيهم   تعدها على سمع الزمان قوافيا
شوارد يهبطن المواطن من عل   روائح في آفاقها وغواديا
قوارع للاسماع ينششن حكمة   اوامر للالباب طرا نواهيا
نواطق بالفصحى سوالب للنهى   ضواحك احيانا وحينا بواكيا
دواني من فهم الاديب فان يرم   محاكاة مبناها يجدها قواصيا
جوامع للفظ الذي راق سبكه   حوافل بالمعنى البليغ حواليا
امالت افانين الاراك فنونها   واسكنت السحر العيون السواجيا(٨)

ولعمري فكانه في هذه الابيات يصف شعره هو :

دواني من فهم الاديب فان يرم   محاكاة مبناها يجدها قواصيا

وانظر اليه كيف يصور الوحشة في قصيدته برثاء امه ، فيقول وقد امتلأ عاطفة :

ناديت (يا امي) فهبت نسمة   حملت اريج العنبر المتضوع
اوحشت دارا كنت مطلع انسها   فالانس بعدك ماله من مطلع
كيف التفت ارى خيالك ماثلا   فاقول يا اماه هل من مرجع
فكانما ذكراك بين جوانحي   نار تكاد تشف عنها اضلعي
امسي وطيفك ما يفارق ناظري   ولطيف صوتك ما يزايل مسمعي
ولقد وقفت امام رمسك باكيا   حتى حسبت صفيحه يبكي معي
وتمثلت عيناي شخصك فوقه   يهتش بي ويقول لي « لا تجزع »

انظر اليه كيف صور حنان الام بكلمة واحدة « لا تجزع » . ثم يتمادى الامين في وصف الامومة فيقول :

كنا متى ما نمش يمش وراءنا   حذرا فؤادك مشية المتتبع
نعم الخفير لنا فؤاد ملئه   محض الحنو ورقة المتخشع
واذا شكونا عاف ناظرك الكرى   وبسطت كفي مشفق متضرع
ولكم رقبت لدى العشي ايابنا   رقبان ملتهب الجوانح مولع
قد كان بينك للحنان وبيننا   سر فان يخفق فؤادك نسمع (٩)

واسمعه يصف براءة الطفولة في قصيدة اخرى فيقول :

صغيرة السن طاب مولدها   يكاد قلب الحلي يعبدها
طورا لها ضحكة تكررها   وتارة زفرة تصعدها
وليس عن مارب تبسمها   وليس من لوعة تنهدها
ومن الاعيبها لها شغل   يقيمها تارة ويقعدها
ان لم تجد منجدا على حنق   فدمعها عند ذاك ينجدها
وامها تارة تقبلها   وتارة « بالقضيب » توعدها
توقظها نسمة الصباح وان   سرى نسيم العشي يرقدها
تبسم في الحجر وهي نائمة   عن درر ربها منضدها
تخال في الحلم انها انقلبت   عصفورة لا اسى يهددها
او نجمة في السماء ساطعة   وامها في الظلام ترصدها (١٠)

وهو اذا وصف ، لا ينقل اليك المشهد نقلا امينا وحسب ، وانما يضفي عليه كثيرا من المعاني الجديدة المتمشية مع روح العصر ، وكثيرا من الصور الشعرية المبتكرة التي تنم عن شاعرية قوية صافية جعلته في طليعة الشعراء الاصوليين في الادب العربي الحديث .

صدى الخاطر ، ص ٤٩ (٥) المصدر نفسه ، ص ٥١ (٦) امين ناصرالدين الالهام ، ص ٧٣ (٧) العقد الثمين في تكريم الامين ، ص ٦٥ (٨) المصدر نفسه ، مقابل ص ١٩٢ (٩) امين ناصر الدين : الالهام ، ص ١٦٤ — ١٦٥ (١٠) المصدر نفسه ، ص ٢١ — ٢٢ (١١) الامير نسيب ارسلان : روض الشقيق ، ص ٦٨ (١٢) المصدر نفسه ، ص ١١٠ (١٣) الامير شكيب

الامــيران الارسلانيــان

اما الاميران نسيب وشكيب ارسلان ، فقد كانا على غرار امين ناصر الدين شاعرين بدويي الديباجة والاسلوب . وقد تأثرا بمحمود سامي البارودي الذي نهج في شعره نهج الاقدمين من متانة في السبك ، وقوة في التعبير ، وفخامة في اللفظ ، وقد ترسم هذا الشاعر شعراء العباسيين كأبي تمام والبحتري والمتنبي والشريف الرضي ، غير انه ابتعد عن الصناعة اللفظية ، واجرى شعره في الطبع .

بيد ان اثر البارودي كان يختلف عند الشاعـرين الاخوين الناشئين . فقد اعجب نسيب بطابـع البـارودي العربي المتين ، فتذوق من خلاله الشعر الجزل ، ورأى في شعر الجاهليين والاسلاميين ما يشفي غليله ، فعكف على شعراء المعلقات ومن لف لفهم من المخضرمين والاسلاميين ، وظهر اثر هذا اللون في شعره واضحا بينا ، فجاء لفظه فخما متينا ، وجاء اسلوبه جزلا رصينا ، وتاثرت شاعريته بهذا النوع من الشعر ، فاذا بخياله جاهلي مادي ، واذا بصوره محسوسة ظاهرة تلفحها شمس الصحراء ، كقوله يصف الفقير :

جبين بمرفض الصبيب مضمخ   وشعر بملتص الغبار مغلف
وحيد خفوق الاخدعين كانما   تبينت من اوداجه الدم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه   اذا قر منه معطف ماج معطف
اذا زلزلته سرعة الخطو اوشكت   اضالعه في زوره تتقصف
كان ازيز الجوف عند وجيبه   حسيس هشيم والندي يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قدغدت   تصافح منه جلده حين تعصف
واثبت حمي الشمس في ام راسه   نبالا فراش العظم منها منقف
تبطن منثور الغبار جفونه   فضرج منها مقلة تتخسف
كان حمات الشوك في ذيل برده   طراز حواه العبقري المفوف (١١)

ومن لا يعرف ان نسيب ارسلان هو صاحب هذه الابيات يظن انها لاحد الشعراء الجاهليين ، لما فيها من المفردات الغريبة ، ولما فيها من صور مادية لا تنبيء بوجه من الوجوه عن بيئة الشاعر .

كان نسيب مغرما بالقديم الى حد بعيد ، حتى انه لما رأى السيارة قال يهجوها ويدعو الى العودة للفرس والناقة:

لا كان لا كان « الاتوموبيل »   تفسيره خطر « اتم وبيل »
اولى فاولى ان يقل جسومنا   فرس أقب وناقة شمليل
هذا الذي تدعونه سيارة   عبء على كل الانام ثقيل
ابدا يفر الناس من قدامه   فكانهم جيش به مفلول
من لم يكن مثل السليك بعدوه   فليعلمن بانه مقتول (١٢)

اما الامير شكيب فقد اثر البارودي فيه خلافا لما اثر في اخيه . اعجب الامير شكيب بشاعرية البارودي الجارية مع الطبع ، واعجب بهذه العذوبة والرقة اللتين تتجليان في شعر البارودي ، واعجب بهذه السلاسة ، وهذا الانسياب البليغ . وعلم ان هذه الاشياء قد استمدها البارودي من العباسيين : من ابن الرومي والبحتري والمتنبي والشريف الرضي ، فعكف الامير على الشعر العباسي يستمد منه قوته ، ويصقل به شاعريته . واولع باستاذه البارودي ولعا كثيرا ، فبدا تأثيره واضحا على شعره جليا . وغـدا شعره ، ولا سيما المتاخر منه ، وان كانت تشوب الكثير منه مسحة من التسرع والعجلة سببتها اشغاله السياسيـة الكثيرة ، متينا واسع الخيال ، عميق المعنى ، ناضجا انيقا . كقوله في حرب طرابلس الغرب والطليان :

سلا : هل لديهم من حديث لقادم   عن الغرب يروي فيه غلة هائم
وهل وردتهم عن كريم مقامه   سمان المعالي في لطاف النسائم
وهل نظروا من نحو برقة موهنا   فلاحت لهم منها بروق الصوارم
تالق في ليلي ظلام وقسطل   فتنشيء سحب الدمع من طرف شائم
مواطن اخوان تملوا من الردى   كؤوسا تساقوها بملء الحلاقم
تهيبهم فيها العدو مهاجما   فجاء دبيب اللص في ليل قاتم
ولين في اقباله من اهابه   وهل يخدع الانسان لين الاراقم
فثاروا وما كانت زعانف رومة   من العرب اكفاء الليوث الضراغم (١٣)

او كقوله من قصيدة له في ذكرى الاندلس :

كأن لم تكن في ارض اندلس لنا   جحافل ان تحمل على الدهر يذعر
فماذا الذي اخنى عليها وما الذي   رماها بهذا الخسف بعد التصدر
اذا اعمل المرء البصيرة لم يجد   لها علة غير الخلاف المتبر
ولا شر يحكي شر حرب اذا التقت   صناديد قيس مع غطاريف حمير (١٤)

او كقوله يصف شعر شوقي من قصيدة له في رثائه وقد بان فيها سمو المعاني وابتكار الصور :

رقت لنغمته القلوب فكيفما   غنى بها رقصت على نبراته
تغدو المعاني العصم شمس مقادة   فيقودها قود الفلام لشاته
فترى الطبيعة قبل نظرته لها   غير الطبيعة وهي في مرآته
والحسن يشرق في العيون بذاته   وهنا يضيء بذاته وصفاته
واذا تعرض للغرام فهل درت   لغة الغرام نظير شوقياته
او بات يعبث بالشراب اضاف من   كاساته حببا الى كاساته
او خاض في ذكرى العذيب تشابهت   اعطاف مستمعيه مع باناته
واذا تحدث بالربيع وروضه   انساك بالتحبير وشي نباته (١٥)

فلنلاحظ دقة الوصف وحيويته ، وشريف المعاني واناقتها ، ومتانة الاسلوب والديباجة تتجلى في شعر الامير الذي ظل طول حياته حريصا على الاسلوب العربي المتين حرصه على وحدة العرب والذود عن حياضهم . يذب عن القديم ، ويقاوم التيار الجديد في الشعر الذي اباح للشعراء التحرر من الوزن والقافية ، والتحرر من الاسلوب العربي المتين . فالتجدد الحق في نظره انما هو بالمعاني المبتكرة لا بالخروج عن الاساليب الصحيحة التي تميز لغة عن لغة . قال الامير في ذلك : « اما من جهة الشعر العربي الذي تريدون ان تفرنجوه فالشعر العربي لا يكون شعرا الا اذا وافق ذوق العرب ولاءم مشارب انفسهم وجانس مذاهب لغتهم واتصل بمناحي حياتهم نظمه قديم او متوسط او محدث كلهم على حد سواء . فاذا باين الشعر العربي اساليب العرب في بيانها وطرقها في التعبير عن خوالج نفوسها لم يتأثر به قاريء ولا تسوغه سامع من العرب وربما لم يفهموه اصلا . » (١٦) .

سامي نسيب مكارم

ارسلان : الديوان، ص ١٠٨ (١٤) المصدر نفسه، ص ١٢٤ (١٥) المصدر نفسه ، ص ٨٣ – ٨٤ (١٦) الامير شكيب ارسلان : شوقي او صداقة اربعين سنة ، ص ٢٣٧ .

منتصف الطريق

○

أيهذا الهاجري ولـه — منزلٌ في القلب آهِلُه
لا تقل : « قد كان ثم مضى » — فهو باق لا يزايلـه
انه « كالان » خلدهـا — عاجلٌ فان وآجلـه

لا تقل : « ينسى صبابته — بعد أعوام تطاولـه »
سوف ينسى ان أردت لـه — حين تجفو السحر بابله
حين يشدو الصخر من طرب — ثم لا تشدو بـلابله

لا تقل : « قد نال واحدة — من زهوري ـ سوف أمنعه »
ان ذاك الحقل أجمعـه — يا حياتي ليس يقنعـه

لا تقل : « ناولته بيدي — كأسَ خمر لذَّ ناهله
حسبه ما نال من أمـل — ليس بالمغبون نائلـه »
فهو كالصحراء من ظمأ — لا ترَوِّيه جداولـه

لا تقل : « طيفي يعلـله — ان ينمْ . » فالنوم قد هجرا
لا تقل : « اني سأوقفه — ان أضعْ في دربه حجرا »
ان صخراً ليس يحبسه — فهو مثل السيل منحدرا

لا تقل : « ماحيلتي معه ؟ — فهو يضنى من يغالبـه
انني أخطـأت ليلتهـا — والهوى تسري عقاربـه
حين لم يسأل سوى أمل — ليس بالمأثوم واهبـه
ليتني لـم أُرْضـهِ ابدا — فهو لا تفنى مطالبـه
صار كالشيطان يهتف لي — لا يبالي اذ أعاتبـه . »
لا تقل ذا ـ لست تعرفـه — فهو ما يرضاه غاصبه

الخرطوم — مصطفى عوض الكريم
من رابطة الادباء السودانيين

القرية اللبنانية في ادب فؤاد سليمان

بقلم جورج هارون

ooo



عرفت اللغة العربية كاتبا اجاد في تصوير القرية والحياة القروية اجادة فؤاد سليمان في تصوير القرية اللبنانية ذلك ان ما من احد احس لبنان مثلما احسه فؤاد سليمان على حد قول صلاح لبكي وما بلغ فؤاد سليمان نفسه ، في كل ما انتج ، الروعة والفن اللذين بلغهما في اوصافه للقرية اللبنانية ، فما حامت بنات افكاره اكثر ما حامت الا فوق سمائها وما جال قلمه معظم جولاته الا في ساحها ، وما طاف قلبه اكثر تطوافه الا بين ذكرياتها : لقد دار في فلكها في نثره وفي شعره في قطعه الصحفية ومقالاته الادبية . وما كان في نثره اقل شاعرية واضعف وقعا منه في شعره.
ففؤاد سليمان هو شاعر القرية بلا منازع . غناها في حبه وعانقها في اشواقه وحن اليها في اتراحه واشجانه ولامست روحه روحها في يأسه وقنوطه ، هي حبيبته وهو حبيبها. كلف بها . فحياتها حياته ومماتها مماته .

ومن شدة هيام هذا الكاتب العاشق بالحياة القروية وافتتانه بجمالاتها ومحاسنها رايتنا نشفق على وجده فترق قلوبنا له . ومن كثرة ما هو يحاورها ويناجي السنديانة واللوزة وسبلة القمح وجدتنا بدورنا مأخوذين بجمال البساطة في جوها الدافىء وفي شوق الى تنسم هوائها وتفيؤ اشجارها والعيش في احضانها . فمن تلقف من مزامير فؤاد سليمان حول القرية عشق فؤاد سليمان وافتتن بالقرية التي يغذي فؤاد سليمان ادبه من مائدتها السخية. ومن رشف من الينابيع التي يفجرها صاحب « تموزيات » في ادبه القروي تمنى لو يجلس الى جانبه في بيوت القرويين بسقوفها ونوافذها وزواياها . وحصرها وآنيتها. بل اشتهى لو يشهد معه شتاء الضيعة بوخزات برده وجليده وطبيعته المهجورة من العصافير والبلابل ولو يستمتع واياه بربيع الجبل فينعم بالاصغاء الى شدو بلابله والتأمل بسطوع قمره الفضي وواكب اشجاره واطياره ، متذوقا الطيوب اللبنانية التي نسجت اسلوب صاحب « تموزيات»، متمنيا لو يحيا في ظلالها الى جانب السكة والمعول واعشاب القش التي يستلقي اليها الراعي وقطيعه .

ذلك ان فؤاد سليمان هو الضيعة باوديتها ومروجها وقممها وهضابها ، دواجنها واطيارها ، اكواخها وآلاتها تتسلسل الى الادب وتتغلغل في الفن والنغم وتغزو لغة العقل والقلب .

وفؤاد سليمان هو الجبل يهبط الى المدينة ومعه جوه وطبيعته ، حقوله وساحاته .

وهو الصرود العالية تزحف الى الساحل بسندياناتها ولوزاتها ، صخورها ودروبها ، ثلوجها وفصولها .

وفؤاد سليمان في ادبه هو السنديانة الجبارة الرابضة في ساحة القرية والتينة المتروكة ابا عن جد خلف البيت.

والسكة المصداة المشلوحة في الحقل وقد عافها اصحابها .

والبيوت المهجورة المتداعية وقد كاد ينسى التاريخ ساكنيها الاولين .

والحقول المهمولة وقد بلى محراثها ولف الصدامعولها.

اما مغتربو القرية اللبنانية ، وبعادهم عن الوطن حسرة في قلب فؤاد سليمان . فمن بلاده، من كل قطعة من بلاده نزحوا فنبغوا ولمعوا . من لبنان ، من هذه الشطوط وهذه السفوح وهذه القمم . من قدر لهذه القصبات الفريبة المقتلعة من هذ السهول وهذه الجبال مثل هذا الخصب وهذا الفيء ؟ ويحن اليهم لانهم لا يزالون ، على بعد اقامتهم في الغربة يحنون الى الضيعة اللبنانية ، يحنون الى سنديانة الكنيسة العتيقة ، الى حبات التراب في الكرم، الى علم بلاده الاحمر .

ومثلما تغنى صاحب « درب القمر » بحياة القرية ، عهد كانت هذه ماهولة ، فقد قارن بين هذه الفترة وبين حياة القرية ان جلا عنها اهلوها وغاب اصحاب الزنود القوية فيها ..

وما وصف قلم مثلما وصف قلم فؤاد سليمان القرية، وما خلفت وراءها في القرية اللبنانية المهجورة من فراغ رهيب . هنا مواقد النار المنطفئة والبيوت الخالية الخاوية وهناك الساحات المقفرة وعناقيد العنب اليابسة على اماتها في الكروم وهناك جرس الكنيسة المحني الراس وانوال الحرير النادبة ودودة القز الميتة جوعا . وفي مكان اخر بيادر القمح الجامدة وبيوت القرميد الحمراء المعتمة ، ودروب الحب المقفرة والبنيات الصبايا المكسورات على الشبابيك عيونهن في البحر وراء الحكاية .

لوحة فنية رائعة رسمتها ريشة شاعر فنان ، اسبغ على انواره وظلامه وخطوطه عاطفة مياسة وجرسا موسيقيا طيب الطعم حلو النغم ، عميق الواقع . وقطعة من الادب الحي زاخرة بالبيان الساحر ، غاية في الصراحة والواقعية يطرب صاحبها حتى يسكر محلقا بك في نشوة جبرانية جديدة .

واي عجب في ان يهز اوتار قلبك فنان يتغنى قلبه القروح باوصاف القرية حبيبته . فاذا بهذه الرقعة من الوطن من موحيات الحب والشعر .

اجل ، علمنا فؤاد سليمان كيف نستوعب من طبيعة ضيعتنا مادة للادب وكيف نستل من الوديان والقمم ، من الحقول والبيوت الحقيرة ، من البساطة القروية والجو القروي ، قطعا تزخر بالجمال وتنضح بالفن وتعمربالعبقرية

علمنا فؤاد سليمان كيف نحس لبناننا احساسا جديدا وكيف نستل من قراه وبقاعه ينابيع من الشاعرية والمتعة علمنا ان نستلهم السنديانة والعاصفة والقرميدة التي اطارتها الرياح حديثا وشعرا .

وبديهي ازاء هذا الكلف بتصوير مشاعر القرية اللبنانية

زهر الخريف

ooo

قام هزار السحر ... ينقل سحر الوترِ
فاتعشت للحنه ... زهوا بنات الزهر
يا ما أحيلى الروض ان ... جادته كف المطر
فابتهجت ازهاره ... لطله المنتشر
يصبيك ما في الروض من ... بديع تلك الصور
تجانست أزهاره ... اصفرها بالاخضر
فالورد يشكو الجور من ... فعل السحاب المنكر
مذ لطمته فاغتدى ... يزهو بخد أحمر
والنرجس الغض بدا ... يرنو بطرف أحور
يخاف من عادية ... من الرياح صرصر
اذ بيد الريح أغتدى ... أمر القضا والقدر
وودع الزهرُ الروابي ... في الخريف المدبر
حيث الشتا جاءهما ... من برده بعسكر
ران عليها حيث لم ... يبقِ لها من أثر
فأصبحت على الربا ... كالشهداء الجزَّر
لهفي على الروض فكم ... به انقضى من وطر

بغداد

عبد الكريم الدجيلي

في ادب فؤاد سليمان ، ان نتساءل :

لماذا حصر صاحب « درب القمر » حبه للقرية دون المدينة ؟ لماذا فضل التغني بالجبل دون الساحل ؟ الا تطيب له الاقامة في المدن والسواحل ؟ وهل خلت هذه البقاع الاخيرة من الوان الجمال وحلو الحياة ؟ اليست النهضة التي تعمر بها العواصم والمدن الكبرى والحضارة التي بلغت فيها الاوج بمظاهرها المختلفة ، اليست كلها مادة صالحة لان يتغنى بها في الادب والشعر ؟ اليست كل هذه الحياة الواسعة الصاخبة لتهز قلب فؤاد سليمان فيعجبه فيها شيء واحد يعطيه من قلمه ومن روحه ؟ ولعل انصرافه عن المدينة الى القرية يعود الى كون الاولى هدمت من صحته وكانت مصدر آلامه الجسدية والنفسية . او خيبت من اماله وحدت من طموحه واثبطت من همته وشجاعته ، فيأس ولاذ بالحياة القروية التي لاقى فيها ، فيما مضى الطمانينة واللامسؤولية ومرح الحداثة ، يتعزى بذكرياتها ويجد في التغني بجوها بلسما لجراحه النفسية .

فقد احب فؤاد سليمان القرية ابنا لها وربيبا فيها ، وهي مسقط راسه . واحبها شاعرا ، منفعلا بموحياتها متاثرا بالهامها ، واحبها لاجئا يائسا وبائسا عليلا في نفسه وفي جسده ، ينشد فيها العافية لجسده وروحه واحبها حزينا ، لعله ينسى فيها واقعه الراهن وحاضره المخيب ، احب في القرية ماضي القرية ، لانه ينفر من حاضره.

فحب صاحب « تموزيات » للقرية اللبنانية نفحة من ذكريات رومنطقية جديدة من نوعها في الادب العربي كله ؛ ذكريات استفادت من العهد القديم ومن ادب جبران ومن التيار الرومنطيقي على تعدد اهوائه وتباين اتجاهاته .

جورج هارون

بقلم شتيفان تسفايج

ترجمها عن الالمانية بدري قدح

مقدمة كتاب ماري انطوانيت

ooo

الحديث عن تاريخ الملكة (ماري انطوانيت) يعـني العودة الى دعوى مضى عليها اكثر من قرن حيث هاجمت جهتا الادعاء والدفاع بعضهما بعضا على اعنف وجه ، وكانت جهة الادعاء هي البادئة باثارة الحماس في الجدال ، اذ لم يكن ثمة بد لرجال الثورة ـ اذا هم ارادوا اصابة النظام الملكي في طعنهم ـ من مهاجمة الملكة وفي شخص الملكة المرأة ، غير انه قلما تأوى حقيقة الواقع والسياسة الى سقف واحد ، واذا كان هناك ضرورة لنصب هامة امام اعين الجماهير الماشية بقصد اثارتها فلا يمكن للمرء ان ينتظر لها من العدل لدى القابضين على زمام توجيه الراي العام الذين هم طرف في الامر ، الا قليلا .

لم يترك رجال الثورة وسيلة الا وتوسلوا بها لتحطيم (ماري انطوانيت) فلم يضنوا عليها حتى ولا بالافتـــراء والبهتان ، ولكي يوصلوها الى المقصلة نسبوا اليها كـــل الرذائل ووصموها بكل عار وبكل انحطاط وشذوذ فـــي الخلق وشنوا عليها حملات شعواء في الصحـف والمجـلات والكتب وجميع المطبوعات على انواعها حتى في بيت العدل بذاته في قاعة المحكمة قام المدعي العام وشبه الارملـــة كابي (١) باحط النساء واقذرهن نفسية ممن لعبن دورا مشؤوما في التاريخ فاتى على ذكرهن امثال مساليـنا (٢) واغريبينا (٣) وفريديجندس (٤)...

ومقابل ذلك كان التحول ايضا بهذه النسبة حاسمـا وسريعا في سنة ١٨١٥ اذ انقلب الامر راسا على عقب عندما ارتقى مرة اخرى احد افراد اسرة (بوربون) العرش الفرنسي فقام القوم يومئذ تملقا للاسرة المالكة بطلاء شبح (مـــاري انطوانيت) الذي كان قد اعتبر شيطانا في الماضي القريب ، باجمل الالوان وازهاها ، ولم يعد المرء يرى في ذلك الزمان صورة للملكة الا وقد احيطت بسحاب من العطر والبخور ووضع على راسها اكليل من نور ، ثم تعاقبت الحان المديح الواحد تلو الاخر وراح الكتاب والشعراء يصفون بحماس واندفاع نثرا ونظما فضيلة الملكة وطهرهـــا ، ويبجلـون شجاعتها في التضحية وطيب قلبها وبطولتها الرائعة التي لا تشوبها شائبة ، وتحيك الايدي ـ الارستقراطية منها خاصة ـ حول وجه الملكة الشهيدة ، ـ ملكة الشهداء حجابا من النكات اللاذعة على النادبين حجابا ابلته دموع سخية .

ولكن الحقيقة تقع هنا كما تفعل في معظم الاحيان بالقرب من منتصف الطريق بين النقيضين ، ان (مـــاري انطوانيت) لم تكن في الواقع لا القديسة العظيمة للنظام الملكي ولا مومس الثورة ولكن امراة متوسطة الخلق امراة عادية ، فلم يكن لها ذكاء حاد خارق ولم تكن حمقاء بليدة ، انها ما كانت نارا ولا جليدا وما كان لها قوة جامحة لعمل الخير والمعروف كما انه ما كان لها اقل ارادة في عمل الشر . لقد كانت امراة « وسطى » في نفسيتها ، امراة الامس وامراة اليوم وامراة الغد لا تجنح للاعمال الخبيثة مدفوعة اليها بميل شديد غير مالوف وليس لها رغبة في البطولة لا تقاوم ، ولعله لهذا السبب بذاته يصعب على المرء ان يتصورها مادة لماساة عظمى ولكن دميورج (٥) العظيم صانع التاريخ وصاحبه لا يحتاج حتما ودوما الى شخصية عظيمة لها نفسية البطل كشخص رئيسي ليبني حولها تمثيليـــة دراماتيكية تزعزع النفوس هزا .

ان الفاجعة لا تنشأ فقط عن عظمة في نفس الانسان بالنسبة الى زمنه ومحيطه ولكن قد تنشأ ايضا في كـل وقت عندما لا يكون ثمة تناسب وانسجام بين شخصيـة المرء ومقدوره ، انها تظهر على مسرح الماسي عندما يكون هنالك شخص له قوة روحية تفوق المستوى الاعتيادي ، بطل او عبقري في نزاع مع عالمه الذي يبدو ضيقا معاديـا ومعارضا له في اداء رسالته التي ولدت معه وولد مـــن اجلها كما حدث مثلا لـ (نابليون) عندما كان يضيق صدره ويشعر باختناق في مقره في (سانت هيلين) او ل (بتهوفن) عندما قيده طرشه بسلاسل اقوى من الفولاذ او كما قد يحدث دائما لكل نفس عظيمة لا تجد لها عيارا من وزنها ولا منفذا لما يفيض عنها ، غير ان الفاجعة قد تنشأ ايضا

(١) كنية ملوك فرنسا الاقدمين . اول ملك للعرق الثالث كابيسيان كان يدعى هوبخ كابي .

(٢) ـ مسالينا ـ اول زوجة للامبراطور الروماني كلوديوس الاول مشهورة بسوء سلوكها وفجرها وهي ام بريتانيكوس ، قتلت سنة ٤٨ .

(٣) ـ اغريبينا ـ تزوجت للمرة الثالثة من الامبراطور كلوديوس الذي جعلته يتبنى ابنها نيرون الشهير ثم دست السم لزوجها بواسطة المراة الشريرة لوكست بقصد تنصيب ابنها نيرون على العرش الرومـاني . طموحة دون ضمير .. ترتكب كل اثم في سبيل تحقيق ماربها .

(٤) زوجة شلبريك الاول ، ملك نستري او مملكة المغرب ، وهـي ملك البلاد الواقعة في غربي فرنسة الحاضرة ما بين اللوار وبريتانيا وهي احدى الممالك الثلاث التي اسسها الفرنكة كانت فريديجندس اولا خادمة للملكة اودوفير زوجة شلبريك فلما تزوج هذا بعد الاولى من غالسفينت ارسلت فريديجندس من يخنقها لتتزوج من الملك اذ كانت جميلة ولكنها كانت طموحة ايضا لا تتاخر عن ارتكاب اية جريمة مهما عظم شانها اذ قتلت زوجها واتبعته بمطران مدينة روان لم حكمت المملكة باسم ابنهـا كلوتير الثاني (٥٤٥ ـ ٥٩٧) .

(٥) ـ دميورجوس ـ اسم للاله الخالق في الفلسفة الافلاطونية .

عندما يكتب على نفس (وسط) او دون الوسط نصيب هائل غير متناه في اطرافه ، غير متناسب مع طينتها ، عندما تلقى على عاتق نفس مثل هذه مسؤوليات شخصية خطيرة، فتطبق هذه عليها وتعصرها ثم تسحقها سحقا . ان الانسان فوق العادي يبحث له ايضا وعن غير وعي منه عن نصيب له في الحياة اكبر من العادي ويحيى بعضويته وفقا لما تتطلبه طبيعته المتفوقة الشاذة بعظمتها حياة بطولة او على حد تعبير « نيتشه » يحيى حياة خطر دائم ، فهو يتحدى العالم بما في نفسه من طموح جبار وعلى هذا لا يكون الخلق المبقري بريئا مما يحل به من الام ، لان الرسالة التي يحملها والتي تعجم صاحبها بالنار تتوق بتصوف الى اخراج اخر قوة منه واظهار اخر قطرة من سائل الطاقة الكامنة فيه ، وهكذا يحمله نصيبه او مقدوره العظيم ليزيده عظمة ويسمو به الى الاجواء العالية كما تفعل العاصفة بطير البحر ، بينما صاحب الخلق الوسط يرغب على العكس من ذلك في عيشة مسالمة لا يبتغي بل ولا يحتاج الى توتر كبير لانه يرجح الحياة الهادئة في الظل حيث لا تعصف الرياح ولا ترتفع حرارة القسمة والنصيب ،ولذلك تراه يحمي نفسه ويداريها ويدافع عنها ولذلك يخاف ويجبن ، ولذلك يتهرب كلما دفعته يد خفية وزعزعته في مستقره ، فهو يريد ان لا يتحمل مسؤوليات امام التاريخ العالمي ، بل على العكس من ذلك تراه يتحاشاها ، فلا يبحث عن الالم فان اصيب به يكون ذلك عفوا او فرضا ، وان تعاظمت نفسه الى ما فوق مستواها الاصلي الخاص بها انما تفعل مدفوعة بقوة خارجية لا داخلية .

اني ارى الم الانسان غير البطل في طينته اي الانسان الوسط ــ عندما تختاره الاقدار لاداء رسالة ــ اقول ارى هذا الالم الذي لا يستطيع صاحبه ان يجمله ناطقا بشكل او باخر لا يقل عن الم البطل الحقيقي المحسوس لدى الجميع ولربما كان اشد وطأة منه واكبر تاثيرا على النفس ، لان الانسان المثيل لكل انسان اخر عليه ان يتحمل لوحده المه ويكمنه في جوانحه اذ لا حيلة له في جعل عذابه ينقلب الى انتاج متكلم ، الى اثر خالد كما يفعل الفنان الذي يجد في موهبته عزاء بل وخلاصا لروحه مما تعانيه .

لعل حياة (ماري انطوانيت) هي اوضح مثل يضربه لنا التاريخ فيما عسى ان تفعله الاقدار في بعض الاحيان بانسان (وسط) اذ تمد اليه قبضتها الطاشنة فتقتلعه عنوة وبغلظة من (وسطيته) لترفعه الى العلاء .

لقد سلكت هذه المراة في السنين الثلاثين الاولى من عمرها البالغ ثمانية وثلاثين عاما طريق اللامبالاة مع العلم بان طريقها هذا كان في بيئة مرموقة غير ان (ماري انطوانيت) ما بالغت قط وما اسرفت وما اجتازت خلال هذا الزمن حدود الانسان الوسط لا في الخير ولا في الشر، لقد كان لها في البداية من الوجهة التاريخية وقار رجال الدولة من حيث الهيئة والشكل ، ولولا اندلاع الثورة في دنيا لهوها الغافلة الضاحكة لاستمرت هذه المراة في عيشها لا يحرك نفسها ويثيرها امر عظيم ولقضت ايامها كما تفعل مئات الملايين من النسوة على مرور الاجيال اي لرقصت وثرثرت واحبت وضحكت وتزينت وتزاورت وتصدقت ولانجبت اولادا والقت من ثم بنفسها على الفراش لتموت

بهدوء بدون ان تكون قد جاءت بشيء للعالم له اثر في كيانه ولوضعت اخيرا باحتفال كملكة في تابوت ودفنت ثم اعلن الحداد في البلاط اثر موتها ثم لزالت ذكراها من ذاكرة الناس كغيرها من الاميرات اللواتي لا يحصى عديدهن كال (ماري ــ اديلايد) ات او ال (اديلايد ــ ماري) ات او ال (انا ــ كاترين) ات او ال (كاترين ــ آننا) ات وهلم جرا ممن دفن مثلا في (جوتا) وقد كتب على قبورهن باحرف مقيتة باردة تبعث الملل في النفوس كلمات لا يقرؤها احد، ولما خطر على بال انسان حي يوما ان يسال عن شكل (ماري ــ انطوانيت) الفاني او عن روحها الراحلة ولما عرف احد من كانت (ماري انطوانيت) حقا بل والاهم من ذلك كله لما عرفت (ماري انطوانيت) ملكة فرنسا هي بذاتها عن نفسها شيئا ولعله من حسن او سوء حظ الانسان الوسط انه لا يشعر باندفاع من روحه ولا بارغام منها ليقيس نفسه ويعرف حجمها ولا بفضول للاستعلام عنها قبل ان تسائله الاقدار ، فهو يترك امكانياته تنام في جوفه وتظل عديمة الفائدة وهكذا يفسد استعداده الخاص به وتضمحل قواه الطبيعية الاصلية ، مثله في ذلك كمثل من يترك عضلاته بلا رياضة فترتخي اذا لم تشدها الحاجة في حالة دفاع حقيقي ، فالانسان الوسط يجب ان يستفز ويتحدى حتى يكون كل ما باستطاعته ان يكون ولربما اكثر مما كان بتصوره هو بنفسه سابقا ، ومن اجل هذا الاستفزاز ليس لدى الاقدار سوط اصلح من الشقاء . .

وكما ان الفنان في بعض الاحيان يستعيض عمدا عن الموضوع العظيم البارز لكل عين والذي يستهوي الافئدة عامة باخر تافه في منظره الخارجي فيعالجه بقصد البرهان على مقدرته في الابداع ، كذلك هي الاقدار فقد تبحث لها من وقت الى اخر عن اقل الابطال شانا لتضرب به مثلا على انها هي ايضا تستطيع ان تهز اعصاب العالم وتشدها بما قد تصنعه من مادة طرية سهلة السحق والفتيت في اصلها ، فتدحرج مثلا الروح الضعيفة التي لا حول لها ولا ارادة قسرا وقهرا الى ان توصلها الى اعظم ماساة . ان ماساة كهذه وبطولة من اجمل هذه البطولات غير المقصودة تسمى (ماري انطوانيت) اذ باي براعة فنية وباي مقدرة وحيلة في ايجاد الادوار وتصنيفها وفي اي مجال تاريخي عظيم عم فيه التوتر سائر انحاء العالم دمج التاريخ هنا هذه المراة في تمثيليته الدراماتيكية ثم كيف احاطها لغاية مبينة بالاضداد من بعد ما جعل منها الكوكب الاول على الرغم من انها في فطرتها انسان محدود الانتاج في كل شيء فيه .

لقد دلعت الاقدار هذه المراة في البداية بمكر شيطاني فوهبتها وهي طفلة بلاطا ملكيا ليكون دارا لسكنها ثم وهي مراهقة تاجا مرصعا على راسها ثم اغدقت عليها وهي صبية كل العطايا من جمال ورشاقة وغنى وعلاوة على ذلك كله اعطتها قلبا خفيفا لا يسال عن قيمة هذه النعم ولا عن ثمنها ، وعلى هذا النحو ظلت الاقدار تراعي وتداري وتداعب وتساير هذا القلب الخفيف الطائش سنوات طويلة الى ان بدا يخلو من الحس تدريجيا ويزداد عدم اكتراثه بالامور شيئا فشيئا غير انه اذا كان الدهر قد رفع هذه المراة بهذه السهولة وبهذه السرعة الى اعلى مراتب السعادة

والحظ انما فعل ذلك عن مكر صامت وحساب دقيق ومارب خبيث مثير ليتركها من بعد تهوى ولكن ببطء مهانة معذبة حتى الحضيض .

ان هذه الفاجعة التي احكمت ادوارها بلؤم ضمت جميع المتناقضات وجها الى وجه ، اذ دفعت (ماري — انطوانيت) من بيت قيصري ذي مئة حجرة الى مقصورة في السجن ومن عرش الملك الى المقصلة ومن عربة مذهبة الى عجلة يابسة من حديد حملتها مقيدة اليدين وراء ظهرها الى ساحة الاعدام ، ومن رغد العيش الى الحرمان ومن الشهرة ومحبة العالم الى كراهيته ، ومن التمجيد الى الشتم والافتراء دائما اسفل فاسفل بلا لين ولا رحمة حتى لحقت بالدرك الاخير الذي ما بعده سقوط .

لقد فوجيء هذا الانسان الصغير، هذا الانسان الوسط بالمصيبة تحل به بغتة وهو يردح في نعيمه ودلاله وتيهه فراح قلبه يتساءل عما عسى ان تبتغيه منه هذه القوة القهارة الغريبة التي تسلطت عليه اذ لم يشعر الا وبجمع كف صلب ينزل به كمخلب حديدي لاهب يخدش لحمه ويفترفه ، واذ بهذا الانسان الضعيف الذي لم يكن ليدري ما الذي يجري به والذي لم يعود من قبل على تحمل الالم ولم يشا قط ان يتحمله يدافع عن نفسه فيثور ويابى ان يرضخ فيئن ويتهرب وعبثا يحاول الخلاص بكل ما اوتي من حول وقوة ولكن انى له ذلك ؟ ان يد الشقاء العاملة بما تريد هي كيد الفنان عند الالهام لا تلوي و لاتلتفت الى شيء قبل ان تستخلص من مادتها اوج التوتر واخر ما باستطاعتها ان تعطيه ، هكذا كانت يد الشقاء مع (ماري انطوانيت) الهزيلة الضعيفة فما تركتها حتى اصقلتها طرقا وعدلت هامتها وجعلتها تعصر وتظهر للعيان كل ما في اهلها واجدادها من عظمة في ارواحهم لتتحلى وتستتر هي بها . فلما امست مخيفة بل مريعة اثر مر العذاب ادركت اخيرا هذه المراة الممتحنة التي لم يسبق لها ان سألت نفسها عن نفسها، ادركت ان تغييرا قد حصل في جوانحها وذلك في الساعة التي وصلت قوتها الخارجية الى نهايتها ، اي عندما تلاشت طاقتها الجسمانية ادركت ان هناك في اغوار نفسها شيئا جديدا بدأ يظهر شيئا لم يكن لها به عهد فيما مضى والذي لولا هذه المحنة لما كان ظهوره ممكنا واذ بها تقول :

« في الشقاء وفي الشقاء فقط يعرف الانسان حقا من هو » هذه الكلمات التي تدل على التفاخر وتهز في الوقت ذاته النفوس ببلاغتها انبعثت من فمها المشدوه وكأن (ماري انطوانيت) قد اتاها وحي او برقت في خاطرها فكرة في ان حياتها ستكون من جراء هذا العذاب ذاته الذي ذاقت مختلف الوانه ونتيجة له ، مثلا للملأ على تعاقب الاجيال القادمة وعبرة له ، فلما وعت هذا الواجب الاعظم عظمت شخصيتها فنبتت وتعالت حتى طفت على حجمها : وهكذا قبل سقوط قامتها الفانية بقليل تم العمل الفني الذي ارادته الاقدار ، تم العمل الخالد اذ في الساعة الاخيرة فقط بلغت (ماري انطوانيت) التي كانت في السابق انسانا وسطا حجم الفاجعة وصارت عظيمة كنصيبها من الحياة .

دمشق — بدري قدح

صوتك

o O o

صوتكِ الضاحك لحن
وربيــع مزهــرْ
ولهيـب فـي حنايـا
اضلعـي يستعـرْ
وبقايـا جنَّـة فـي
هدبــي تنهمــر

*

صوتك الفضيُّ عطر
لغــد مدَّخــرْ
في جــزوع القلب
في دفء حنيني يقطر
أنـا هـل اسكر ام
هـذي الليالي تُسكـر
أبيض لكنــه مـن
وهـج حبي أحمـر

*

صوتــك المتــرف
وشذاه وملئ العنبرْ ،
هـو ملفــى بلبـل
او زقزقــات نضـر
هـو حبـي وشبابـي
وغــد .. لـي انور

*

صوتــك الجارح فجر
ليس يفنـى أشقـر
يتأنـى فـي ولــوج
القلب .. لكـن يأمـر
صوتك الكنـز لقلبـي
تبــرهُ .. والجوهرْ

خليل فاخوري
كنكن — غينيا الفرنسية

الى ريفيتي الجميلة



لفؤاد الخشن
من اسرة الجبل الملهم

الى ريفيّتي الجميلة
حبيبة عمري
هل تذكرين
ليالي الغرام
وشّ الحنين
وفوح الصنوبر
والياسمين ؟

*

وهل تذكرين
ليالي الشرود
بضوء القمر
وسلب الكروم
زمان الصغر
وهمس الحكايا
على البيدر
بليل تغلّف بالمضمر

*

نسيت الذهول
وحبًا جنون
وأني عبدت اخضرار العيون
وعنقا جميلا
كعنق اليمام
تلوّى ...
فجن فؤادي
وهام !

*

نسيت زمان الاماني
وليله
وخدعة قبله
وثغرا نفر
فهام الشجر
وذابت عليه دماء القمر
بلون الحنين
بلون الزنابق
والياسمين ...

*

نسيت زمان على الجدول
بنينا بيوت الهوى الاول
وتهنا
وآذار في فجره
يطلّ
ويبسم من خدره
لصحراء يضحك زيتونها
لطفل الربيع !

*

هناك احب فؤادي الزهر
احب التراب ...
أحب الحجر
احب الرعاة
وشكوى القصب
وهمس الرباب
وشدو القرب
أحب السنابل
والحاصدين !!
وكوخ الفقيرة
والكادحين !
وثلجا تهاوى
زهورا نثيره
ليكسو الغصون
شموعا صغيره !

*

حبيبة عمري
جن الحنين
لعهد يغيب وراء السنين
لفوح الصنوبر
والياسمين
فهيا نعود لارض الصغر
لارض النجوم
لارض القمر
لارض الصفاء
وهمس العبير

*

ونبني هنالك بيتا صغير
وراء الكروم
ترف عليه صغار النجوم
وتدفن فيه
بقايا الهموم !
هنالك أرسو !
وراء الروابي
وكأسي شفاه
تروي شبابي
وبيتي نعيمي
وأنسي كتابي !

قصة قصيرة

بقلم معاوية محمد الدرهلي

مخطوطة للبيع

من وحي « سوق الدير » في مدينة يافا

○ ◯ ○

وقف الحاج ابراهيم على الرصيف المقابل لمخزن الشيخ يعقوب مترددا كالطفل المهذب تتقاسمه عاطفتان . رغبة في القاء النظر للمرة الثلاثين على واجهة المخزن ليرى هل ما علقت به نفسه ما زال موجودا فيها لم تختطفه يد غيره ، وخوف من ان يتبين الشيخ يعقوب مبلغ حرصه على اقتناء تلك المخطوطة فيغالي في رفع الثمن ، مع انه كان يشعر في قرارة نفسه ان الشيخ يعقوب يعلم سره وانه انما يحاوره محاورة القط للفار قبل ان يقع اخيرا في قبضة مخالبه القوية الماهرة مع انها بلغت الستين من عمرها او يزيد . ومد الحاج ابراهيم احدى قدميه اللتين حملتا جسمه الطويل القوي خمسين عاما دون شكوى او احتجاج ووضعها على الطريق الفاصل بينه وبين المخزن وفي تلك اللحظة التفت سليمان الى ابيه يعقوب في المخزن وقال :

— ابي ، اني ارى الحاج ابراهيم يتقدم نحونا .

فقال ابوه محذرا : « احترس . لا تشعره انك تراقبه . ابتعد عن الواجهة ولكن راقبه من طرف خفي . اني احس انه الان وبعد ثلاثة اشهر من التردد قد نضج وقر قراره . ولكن حذار من ان يراك . فهذا سر المهنة يا ابني . لا تظهر لعميلك انك ملنهف للبيع كتلهفه للشراء . ولكن اخبرني اين وصل الحاج ؟ »

— انه ما زال يعبر الطريق ولكنه يسير ببطء شديد . لقد اقترب الان وها هو يضع قدمه اليمنى على الرصيف ... ولكن ... لقد توقف عن السير . ان قدمه على الرصيف ولكنه واقف لا يتحرك . لقد اخرج نظارتيه وها هو يضعهما على عينيه . لقد مال بجسمه الى الامام . ولكن اظن يا ابي انه رآني فانه يسير مبتعدا عنا في اتجاه المقهى . وهو يسير بسرعة . لقد اختفى . »

وصاح الشيخ يعقوب : « الم اقل لك احترس لئلا يراك ؟ لقد افقدت علي الصفقة . متى ستتعلم سر البيع والشراء ؟ الست ابني ؟ لم لم ترث عني القدرة على التصرف ؟ الا يهمك هذا الموضوع ؟ »

ثم سكت فجأة ووضع يده على قلبه . لقد آلمه هياجه واحتدام غضبه وهو ما نهاه عنه الطبيب لضعف قلبه ولكنه قلما يذكر ذلك الا بعد فوات الوقت ... ومرت فترة طويلة من الصمت بين الاب وابنه . وجلس الشيخ يعقوب على كرسي من الخيزران في زاوية من المخزن بينما بقي ابنه واقفا . لقد كان هو ايضا يشعر بالحنق ولكن غضبا على ابيه الذي ما زال يعامله معاملة الصبي ناسيا انه الان شاب متزوج يستطيع لو شاء ان يترك العمل معه في المخزن وان يجد لنفسه عملا تجاريا اخر يلقى هوى في نفسه ، فيه حركة ونشاط واختلاط بالناس بدلا من حياة تكاد تكون في معزل عنهم . فمن من الناس يشتري المخطوطات القديمة في هذه الايام سوى الحاج ابراهيم وقلة مثله يدفعون لقاءها مبالغ عظيمة لا يقدر عليها الا هم وغيرهم من كبار الاغنياء ؟... ولكن هل يمكنه ان يترك اباه حقا حتى ولو سمح له بذلك ؟ ونظر الى ابيه وهو جالس مغمض العينين في كرسيه وقد انزلقت لفته الى الوراء قليلا فبان جبين هذا الشيخ الوقور عريضا وضاءا بالذكاء بينما انامله تلعب بلحيته الناصعة البياض وكانما تعد السنين بعدد العشرات . وتذكر مسؤوليته العظيمة نحو ابيه وشعر بحب وحنان لم يعهدهما في نفسه من قبل فاقترب من ابيه :

— ابي . هل احضر لك كوبا من الماء ؟

— ماذا ؟ آه . لا لا شكرا يا ابني. شكرا .

وبعد قليل اضاف : « سليمان . لقد قسوت عليك في الكلام يا ابني ولكنك تعلم اني ما قصدت مما قلت شيئا . غير ان امثال الحاج ابراهيم قليلون وهو من احسن عملائي . بل يمكنني ان اقول انني انا الذي كونت مكتبته القيمة . نعم انها قيمة فقد اشترى معظم كتبه مني . اتعلم انه يملك المخطوطة الوحيدة للكتاب « الملل والنحل » انا الذي وجدتها له عند احد الشيوخ في القدس وكان هذا الشيخ رحمه الله من اصدقائي منذ ان كنا نتذاكر الدروس في الازهر الشريف معا ولكنه كان يفضل الكتب المطبوعة على المخطوطات ويقول انها اسهل للقراءة ربما ... ربما ... ولكن اي جمال يعادل جمال مخطوطة قديمة مذهبة ومكتوبة بخط واضح متناسق . تعال انظر الى بعضها . هذه مخطوطة قديمة لكتاب احياء علوم الدين للغزالي انها اقدم مني ومنك . اتعلم ان عمرها ثلاثمائة عام .. اي خمسة اضعاف عمري ومنسوخة عن مخطوطة بخط الامام نفسه . انني اشعر بهيبة العلم ووقار الدين كلما المسها . امسكها يا ابني . امسكها . الا ترى الامام نفسه ماثلا امامك بكل وقاره وروعه . وهذه المخطوطة التي سلبت لب صاحبنا الحاج ابراهيم . هاتها . تفحصها جيدا . انظر الى العنوان مكتوبا بالخط الثلثي الجميل « كتاب النجاة » لابن سينا غفر الله له . اما النص فبالخط الفارسي . اترى الحكمة في ذلك ؟ المخطوطات انسان حي ناطق يحدثك عبر السنين وهذه المخطوطة قديمة جدا ولذلك يحرص الحاج ابراهيم على اقتنائها لتزدان بها مكتبته . انه خبير ذو ذوق يعرف الشيء الجيد متى راه » . وهنا قهقه الشيخ عاليا « لا تخف يا ابني لا تخف . ان الحاج ابراهيم لن يفلت من سحرها . لقد راودته عن نفسه اكثر من ثلاثة اشهر وسيرجع لشرائها دون ريب . وسيزورنا مرة ثانية وثالثة دون تردد . »

وهنا قال سليمان « ولكن لقد جاء شخص اخر لا اعرفه يستفهم عن هذه المخطوطة بالذات وعن ثمنها . » وعاد الغضب الى الشيخ يعقوب « وماذا قلت له . هل ذكرت الثمن ؟»

— « نعم قلت انها بمائة جنيه . ولكن هذا مبلغ كبير يا ابي . لا يمكن لاحد ان يدفعه . »

— « أهذا ما قاله زبونك الذي لا تعرفه ؟ »

— « نعم . لقد استكثر الثمن . »

— « الحمد لله . انني لا اريد ان يشتريها احد الا الحاج ابراهيم . لا تنس انه صديقي قبل ان يكون عميلي . ولكنه لن يشتريها الا بالثمن الذي اريد انا : خمسة وسبعين جنيها وسيدفع الثمن . سترى . »

* * *

اما الحاج ابراهيم فما ان ابتعد بضع خطوات عن المخزن حتى سولت له نفسه الرجوع مرة اخرى بحجة ان يصاحب الشيخ يعقوب الى الجامع لتادية الصلاة . ولكنه رجع عن تلك الفكرة لتاكده انه سيلتقي بالشيخ في الجامع على اية حال وسيصطحبه الشيخ يعقوب معه كالمعتاد بعد تادية الصلاة . وقرر لذلك ان يتجول في السوق الذي يملك اكثر من نصفه ويتحدث الى اصحاب المحلات الذين استاجروا منه . واخذ يتنقل من دكان الى دكان ومن زاوية الى زاوية يحدث هذا ويحيي ذلك دون ان يشعر باية رغبة في اطالة الحديث مع اي منهم . وحضرت في ذهنه جملة قالها له الشيخ يعوب مرة « انا وانت ننتمي الى المدرسة القديمة يا حاج . كجزيرتين قديمتين يحيط بهما بحر المدنية العصرية . واكثر ما اخاف ان يغمرنا البحر في اعماقه فيخفينا كلية حتى من ذاكرة التاريخ كان ما تمثله انا وانت لم يكن قط . » واخذ الحاج ابراهيم يستعرض في ذهنه مراحل التغير التي طرات على السوق . لقد ذهب حلاقو الرصيف ومراياهم الصغيرة المعلقة على الجدار واستبدلوا بصالونات عصرية مثل صالون رمضان الذي يقص عنده شعره وهو جالس على كرسي منجد تروح عنه منشة متدلية من السقف يحركها « الصبي » بالحبل . وهو لا يزال يذكر الحصر تعرض للبيع على ارصفة السوق . ولكنها اختفت الان وقامت محلها مخازن تؤوي السجاجيد العجمية . واختفت او كادت عربات اليد تصطف عليها اكواز الماء الفخار وقرب الخزف لم تبق منها الا الواحدة او الاثنتان لا تستطيعان مقاومة المنافسة من حوانيت الصيني والزجاج . وبينما هو يفكر في ذلك اذ مر بدكان مسعود في الطرف الغربي من السوق وشعر بوخز الضمير . فقد كان الدكان لبيع الكتب الحديثة النظيفة ذات الورق المصقول والغلاف الملون البراق — معروضة عرضا انيقا في « المكتبة الجديدة » التي اتخذت هذا الاسم نكاية بمخزن الشيخ يعقوب . وراى الحاج ابراهيم عددا من الشباب يقلبون الكتب ويتصفحونها في المكتبة بينما لم يكن قد راى احدا عند الشيخ يعقوب . ترى هل تقع المسؤولية عن ذلك على كتفيه ايضا . لقد قال له الشيخ يعقوب فيما قال له « حتى انت يا حاج ابراهيم قد خذلتني . انك تملك نصف السوق وكان باستطاعتك لو رغبت ان تصد التيار المكتسح لحياتنا القديمة المأثورة . ولكن روح التاجر فيك تغلبت عليك . سامحك الله » وفجاة شعر الحاج ابراهيم بشيء من الوحدة ووجد نفسه مشتاقا للاجتماع بصديقه الشيخ . لعل الشيخ يعقوب مصيب في قوله انهما جزيرتان غريبتان في بحر جديد ام لعلهما نخلتان غريبتان عند غدير منسي في الصحراء . ولم يرض الحاج ابراهيم عن اي من التشبيهين الى ان اهتدى الى تشبيه جديد . انهما كالشمعة وفتيلتها لا كيان للواحدة دون الاخرى تنيران معا وتحترقان معا . واذا به يحث الخطى الى الجامع ... لقد سمع الاذان وسيقابل الشيخ يعقوب بعد الصلاة .

* * *

كانت الحركة قد هدات في الشوارع عندما رجع الشيخ يعقوب والحاج ابراهيم من الجامع . وحتى المقهى القريب من المخزن كان خاليا من الزبائن ما عدا واحدا او اثنين كانا نصف نائمين في احد الزوايا بينما كان صاحب المقهى يغط في نومه بالقرب من الوجاق . لقد ذهب معظم الناس الى بيوتهم للغداء والقيلولة . ولما كان الحاج ابراهيم يعيش بمفرده لا اسرة له فقد تقبل كالمعتاد دعوة الشيخ لتناول الغداء معه في الغرفة الخلفية للمخزن . وبعد تناول الغداء ما لبثا ان شعرا بثقل الطعام يثقل جفونهما فاستسلما للنوم كل في كرسيه بينما نهض سليمان الى غرفة المخزن الامامية يستريح على الكنبة وينتظر . ولكنه لم يستطع مدافعة قوى النعاس فاستغرق هو ايضا في نوم عميق لم يفق منه الا على ذكر اسمه يدور على لسان العجوزين .

كان الحاج ابراهيم يقول :

— « ولماذا لم ترسل سليمان الى الازهر مثلك يا شيخ ؟ »

فكان جواب الشيخ يعقوب «ولماذا ارسله الى الازهر وقد امنت له مستقبله في هذا الدكان . فانه سيرث كل ما املك وستكون هذه المخطوطات له يبيعها كما يشاء . ثم انه يحب التجارة والبيع والشراء واظن ان مستقبله بهذا اضمن » .

وعندئذ قرر سليمان ان يشعرهما بانه قد استيقظ فكفا عن التحدث عنه ونهض الحاج ابراهيم قائلا : علي ان اذهب الان لقضاء بعض الامور ولكني سأراك في « قهوة المدفع » هذا المساء احب ان اعرفك على صديق سيجيء من الرملة بعد ظهر اليوم . انه من خريجي دار العلوم وهو عالم فاضل احب ان تقابله . »

ولم ينتظر جواب الشيخ يعقوب بل فتح باب المخزن وكان على وشك الخروج حين قال :

— « على فكرة . ارى ان لا احد قد اقدم على شراء مخطوطة ابن سينا اذا وجدت صعوبة في بيعها فقد اشتريها منك مع ان عندي نسخة مطبوعة منها » .

ولم يمهله الشيخ يعقوب بل قال :

» سأريها لصديقك هذا المساء ، فقد تعجبه . الم تقل انه من العلماء الافاضل ؟ اذن سيقدر قيمتها حق قدرها . قل لي ما اسمه ؟ «

واسقط في يد الحاج ابراهيم ولكنه اجاب « لا اظن انه من المهتمين بجمع المخطوطات ، ثم ان الفلسفة ليست من اختصاصه فهو لغوي يجمع كتب فقه اللغة . على كل ساخبره بما لديك . قل لي يا شيخ كم تطلب ثمن هذه المخطوطة ؟ »

— « مائة جنية » ، اجاب الشيخ يعقوب ببطء ودون اكتراث .

واحتد الحاج ابراهيم « ولكنك قلت لي في اخر مرة انها بخمسة وسبعين جنيها » . فقال الشيخ « ولكني لم

اعلم يا حاج انك تنوي شراءها . هذا هو الثمن الذي كلفني شراؤها اصلا. ولكن اذا كنت ترغب انت في اقتنائها فهي لك بلا مقابل يا حاج . »

واخذ سليمان يراقب هذين العجوزين الماكرين وهو يضحك في سره . ما اكثر ما شاهد هذا الفصل يتكرر بينهما دون ان يتحول اي منهما قيد انملة عن موقفه . ترى هل بلغ بهما خداع النفس الى حد التصديق ؟ ام انها لعبة يلعبانها لمجرد التسلية ؟ ام ترى هل اصبحت هذه المخطوطة الرباط الوثيق الذي يربطهما كحبل النجاة ينقذهما من الغرق حتى اصبحا يخشيان ان ينقطع اذا انهيا صفقة البيع والشراء بينهما فيفرقا معا ؟ ما اعجب تصرفات الشيوخ المتقدمين في السن وما اقوى اواصر الترابط بينهم . وكان هذا الارتباط هو البقية الباقية من الحياة التي تجعل للحياة طعما ومعنى عندهم . ان كلا من هذين العجوزين يتشبث بالاخر ولا يريد ان يفلته او ان يفلت الاخر منه دون ان يعلما ان هذا التشبث انما هو اوكد السبل الى الهلاك حين يأتي ما لا بد ان يأتي فيموت احدهما ويموت بموته الاخر . وشعر سليمان بالشفقة على هذين العجوزين وبالاشفاق عليهما وهما يودعان بعضهما البعض على ان يلتقيا في « قهوة المدفع » مساء ذلك اليوم . واخذ يتخوف من ان يأتي ذلك اليوم الذي لا يكون له مساء في قهوة المدفع

* * *

ومع ان سليمان كان يعلم ان ذلك اليوم ليس ببعيد الا انه جاء دون سابق انذار ... كان الصديقان قد رجعا ذلك اليوم من الجامع كعادتهما واستسلما للنوم بعد الغداء كعادتهما ايضا ولكن حينما حاول سليمان ان يوقظهما في اواخر النهار لم يفق منهما الا الحاج ابراهيم . اما الشيخ يعقوب فقد استسلم لنوم ابدي . هل كانت القهوة التي تناولها بعد الغداء هي التي اجهدت قلبه فعجلت بموته؟ ام ان اجله قد جاء « فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون » ؟ مهما يكن الامر فقد توفي ابوه وخلف له هذه المخطوطات ومخطوطة كتاب النجاة ... وخلف ايضا ... الحاج ابراهيم .

وبعد ايام جاءه الحاج ابراهيم

ــ « لقد كان ابوك رحمه الله اعز اصدقائي يا سليمان فلا تتوان في طلب اية مساعدة يمكنني ان اقدمها لك . ماذا تنوي ان تفعل الان ؟ »

ــ « ساحاول بيع هذه المخطوطات بسرعة فانني لا افهمها يا حاج ابراهيم ولن اعرف كيف اتصرف بها . المهم ان احصل على شيء من المال لابدأ به تجارة افهمها . »

ــ « وما هي تجارتك الجديدة ؟ »

ــ « لقد فهمت ان الكتب المدرسية مربحة للغاية . وسأفتح دكانا لبيع الدفاتر والكتب المدرسية . »

ــ « هنا في هذا المخزن ؟ ! لا اظن ان والدك رحمه الله كان سيرضى عن هذا العمل او يقرك عليه . »

ــ «ولكن ما لي غير هذا من حيلة »

ــ « اذن ساساعدك بان اشتري مخطوطة ابن سينا . سادفع لك خمسين جنيها ثمنا لها . ما رأيك ؟»

وقبل سليمان وناول المخطوطة للحاج ابراهيم . فحملها هذا بين يديه وكأنه يحمل كنزا لا يقدر بثمن . واسرع الى بيته ودخل مكتبته وتوجه توا الى خزانة زجاجية صغيرة كان قد اعدها من قبل لمخطوطة ابن سينا فوضعها فيها ثم ابتعد عن الخزانة قليلا ينظر اليها بحب واعجاب . واخذ ينقل الطرف بينها وبين مجموعته الثمينة الاخرى يستعيد في ذهنه تاريخ كل منها وتاريخ شرائها. فاذا بحقيقة غريبة تصدمه . لقد ابتاع كل هذه المخطوطات من صديقه الشيخ يعقوب . واذا به يشعر بشيء من الضعف وكان رجليه لا تستطيعان ان تحملاه . وجلس على كرسي يواجه كنزه الجديد ، ثم اخذ يترحم على الشيخ يعقوب وعلى مخزنه الذي سيصبح مكتبة لبيع الدفاتر والكتب المدرسية ونظر الى مخطوطة ابن سينا من جديد فرأى بهاءها وجمالها ينقص ... واحس بغصة في حلقه .

لندن معاوية محمد الدرهلي

الجرة الخضراء

○

ما حيلتي
والحلو في اضلعي
يقتاتُ حلم الازل الممرع
غذَّيته من شفتي منبعي
وبالجناح الاخضر المبدع
جنَّحته ... فطار
من مربع، خصب الاساطير، الى بلقع
حتى اذا ناديته ... لم يع !
وقال لي :
« من أنت ؟ يا مدَّعي ... »

حلب علي الزيبق
من الاصدقاء

الشاعر ايليا ابو ماضي

بقلم خضر عباس الصالحي

o O o

نـام الشاعر النابغ ايليا ابو ماضي نومته الابدية وآذنت شمس حياته بالمغيب وطواه الموت في جملـة مـن طواهم ، ولكن شخصيته الادبية الرائعة حية فـي قلوب الاجيال على توالي الدهور . ولن تستطيع يد الاحداث ان تسدل عليها ستار النسيان ، او تلفظها عملية التطور ، ففي نتاجه الشعري الفذ من قوة التاثير ما يهز العواطف هـزا عنيفا ويفعل فيها مثل السحر وسيظل اعجاب القراء به لا يقف عند حد ، يثير فيهم اعمق المشاعر الانسانية ...

وكانت امنية تراود الاذهان ، تلك هي هبوط الشعراء من ابراجهم العاجية لينزلوا الى الشارع ويضطربوا مـع جماهير التعساء فلم يجدوا حرجا في سلوك هذا السبيـل حيث يقدمون لنا لمحات من الحياة التي يعيشها بسطاءالناس وهي صوره حية لحياة الاكثرية الساحقة عندنا ويضربون صفحا عن كد عقولهم باعداد المناسبات التي افضت بالشعر العربي الى الجمود فاجترحوا بحقه ابشع الاثام .

وكانت محاولة ايليا ابو ماضي في كل انتاجه الادبي خطوة ايجابية لدراسة الحياة مشحونة بالروعة والابداع دون ان يتخلى عن الرونق الجمالي مع استيعاب التجارب الدفيقه . وقد عمد الى هذه الطريقة ليترفع بالشعـر العربي عن الاسفاف الى درك المديح المصطنع الذي بهت فيه الق الصورة الحية لانه نظم مبتذل لا ينهض على غير الاغتباط بالغة مـا بلغت قداسة الممـدوح . فكان ظهور ايليا ابي ماضي في سماء الادب العربي حدث خطير وموضع اهتمام المعنيين بالشؤون الفكرية فتطلعوا اليه في دهشةواستغراب وقد اسكرتهم نشوة الحماس وخطف ابصارهم ضوءهاللماح.

ان قيمة شعر ايليا ابي ماضي لا ترتكز على طرافـة معانيه في الفكر والفن فحسب ، بل على دعوته الصادقـة الى محبه الحياة والتمتع بجمالاتها على اوسع نطاق ، وقد اهاب بالناس جميعا ان يشاركوه بهذا التمتع الذي يضفي على النفوس الحائرة الوانا من التفاؤل والطمانينة . ويفتح لها آفاقا رحابا من الغبط والامل الوريف ...

قـال السمـاء كئيبـة وتجهمـا   قلت ابتسم يكفي التجهم في السما
قال الصبا ولى فقلت له ابتسـم   لن يرجع الاسف الصبا المتصرما
قال العدى حولي علت صيحاتهم   اأسر والاعداء حولي في الحمـى
قلت ابتسم لم يطلبوك بذمهـم   لو لم تكن منهم اجـل واعظمـا
قال الليـالي جرعتنـي علقمـا   قلت ابتسم ولئن جرعت العلقمـا
فلعـل غـيرك ان رآك مرنمـا   طرح الكابـة جانبـا وترنمـا
قال البشاشة ليس تسعد كائنـا   يأتي الى الدنيا ويذهب مرغمـا
قلت ابتسم ما دام بينك والردى   شبـر فانك بعـد لـن تتبسما

وقال :

ان التأمل في الحياة يزيـد آلام الحياة
فدعي الكابة والاسى واسترجعي مرح الفتاة
قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهللا
فيه البشاشة والبها   ليكن كذلك في المسا

فتحبيب الحياة للناس كان حصيلة استغراقه العميق في التفكير والتامل ، فاتخذه مبدأ قويما ما حاد عنه قيـد شعرة طوال فترات عمره الحافل بجلائل الاعمال فاستوحى جميع روائعه الادبية من صميم هذا المبدا الراسخ في اغوار نفسه وقد عبر عن كل فكراته التي تبلورت في ذهنه بشعر يرشح من القلب ويقطر من الروح ويحفز الاخرين للنسج على منواله وبلوغ شانه ، فلا يتركون انفسهم نهبا للافكـار السوداء تطفح على وجوههم علائم الخيبة والاخفـاق . وتعتمل في جوانحهم عوامل التبرم والضجر فيقول :

رضيت نفسـي بقسمتهـا   فليـراود غيري الشهبـا
انا من قـوم اذا حزنـوا   وجدوا في حزنهم طربـا
فاذا مـا غايـة صعبت   هو نـوا بالتـرك مـا صعبـا

وقال :

كن غديرا يسـير فـي الارض   رقراقا فيسقي من جانبيه الحقولا
تستحـم النجوم فيـه ويلقـي   كـل شخص وكـل شيء مثيـلا
لا وعاء يقـدر المـاء حتـى   تستحيـل المياه فيـه وحولا
كن مع الفجر نسمة توسع الا   زهـار شمـا وتـارة تقبيـلا
لا سموما مـن السوافي اللواتي   تملا الارض في الظلام عويـلا
ومع الليل كوكبا يؤنس الغـا   بات والنهر والربـى والسهـولا
لا دجـى يكره العوالم والنـا   س فيلقى علـى الجميـع سدولا

في سنة الف وثمانمائة وتسع وثمانين ولد ايليا ابو ماضي في المحيدثة من قرى لبنان المتناثرة على سفـوح الجبال لابوين فقيرين ومنذ ان شب عن الطوق استشعـر آلام الفاقة تصهر نفسه المعذبة بنيران الاسى . واحس بانياب الفقر المدقع تمزق احشاءه بلا هوادة . وذاق مرارةالحرمان وشظف العيش وران على حياته التعيسة ضباب الكـابة الكثيف فاكتسب رصيدا لا ينضب من الاحاسيس المتدفقة. ولم ينزو في قوقعته الادبية بل شارك الاخرين في حيواتهم وعاش في سويداء مشاكلهم الاجتماعية وصار يحز فـي نفسه ذات الحساسية الشديدة كلما وقعت عيناه على فقير يتضور جوعا . تعتلج في ضلوع كل انسان حي الضمير . صادق الوجدان ...

فيقول ..

هـم الـم بـه مع الظلمـاء   فنأى بمقلتـه عـن الاغفـاء
قد عضه اليأس الشديد بنابه   في نفسـه والجوع في الاحشاء
قطع القنوط عليه خيط رجائه   والمرء لا يحيـا بغير رجـاء
قـل للغنـي المستعـز بماله   مهلا لقد اسرفت في الخيلاء
جبل الفقير اخوك من طين ومن   مـاء ومـن طين جبلت ومـاء
فمن القساوة ان تكون منعما   ويـكون رهن مصائـب وبلاء
وتظـل ترفل بالحرير امـامه   في حين قد امسى بغير كساء
اتضن بالدينار في اسعـافه   وتجود بالالاف في الفحشـاء
انصر اخاك فان فعلت كفيته   ذل السـؤال ومنة البخـلاء
اذوي اليسار وما اليساربنافع   ان لم يكن اهلوه اهل سخـاء

ولم يكد يبلغ العاشرة من عمره حتى هاجر الى مصر واستقر به المقام في ثغر الاسكندرية واشتغل ببيع لفائف التبغ ليضمن له القوت اليومي ويدفع عنه غائلة الجوع في كفاح مرير يمثل صمود البطولة في وجه الظروف القاسية وكبرياء الرجولة امام مأساة البؤس المحدق به . وكانه طوق يحني الظهر ويدق العنق وكاد ان يمسك عليه رمق الحياة . ولكن هذه الارزاء المتلاحقة لم تصرفه عن الاهتمام باستكناه اغوار الحياة حيث نشأ يكشف اسرارها ويجلو بواعثها فكلف نفسه وعثاء التحليل المستعصي واكب على الدراسة والتحصيل فاسلس له الشعر قياده ، فما وان بلغ سنه العشرين حتى بدأ يحرر في الصحف والمجلات المصرية وقد قرأ بعمق وتفهم باستيعاب كل تراث فكري فاصبح انسانا ذا قلب كبير وعقل متأثر بمعطيات العلم الحديث . وصار رجلا صهرته التجارب ذا احساس مرهف وشعور دافق ، تفجرت في كتاباته ينابيع القوة والابداع ... حيث يعرضها على قراء العربية بايسر عبارة واوضح اسلوب وهي محملة بطاقات انسانية عميقة ولم يلبث ان نشر (تذكار الماضي) مجموعته الشعرية الاولى وهو يقفو فيها خطى الشعراء القدامى من حيث اسلوبهم الخطابي واجترارمعانيهم

وفي سنة الف وتسعمائة واحدى عشر رحل الى الولايات المتحدة واقام في سنسناتي وبعد مرور خمسة عشر عاما انتقل الى نيويورك واحترف مع اخية مراد ابي ماضي التجارة للحصول على لقمة العيش . وعمل في الميدان الادبي ... وما ان تأسست الرابطة القلمية برياسة فقيد الادب العربي الكبير جبران خليل جبران حتى كان ايليا ابو ماضي من اعضائها البارزين ولكنه لم يحضر اجتماعها الاول بسبب مشاغله الكثيرة .. واصدر جريدة (السمير) وقد زين صدرها بهذين البيتين من الشعر .

انا لا اهدي اليكم ورقا   فيركم يرضى بحبر وورق
انما اهدي الى ارواحكم   فكرا تبقى اذا الطرس احترق

وعلى صفحاتها انعكست تجاربه الشخصية واستقى خياله من نبع الحياة لتخليص الشعر العربي من الرتابة وداء التكرار وما عجز عن النهوض برسالات الفكر وهو يمارس قضية الادب الملتزم الذي يعرض فيه صور النفس البشرية وحالات الطائع فيقول ...

خرج الناس يشترون هدايا   العيد للاصدقاء والاحباب
فتمنيت لو تساعفني الدنيا   فاقضي في العيد بعض رغابي
كنت اهدي اذن من الصبر ارطا   لا الى المنشئين والكتاب
والى كل نابغ عبقري   امة اهلها ذوو الباب
والى معشر الكسالى قصورا   من لجين وعسجد في السحاب
والى ذي الغنى الذي يرهب   الفقر ازدياد الذي به من عذاب
كلما عد ماله مطمئنا   ابصر الفقر واقفا بالباب
والى الصاحب المراوغ وجها   اسودا حالكا كوجه الغراب
فاذا لاح فرت الناس ذعرا   من طريق المنافق الكذاب
والى من يسبني في غيابي   شرفا كي يصونه من سبابي
والى حاسدي عمرا طويلا   ليدوم الاسى بهم مما بي

وبهذه الكلمات المؤثرة اعاد الى الادب العربي رونقه وخصبه وهو يفصح عن تجاوب قائم على واقع شديد الالتصاق بالانسان . ويظهر مدى الصراع العنيف بين العقلية القديمة والذهنية المتطورة في امة لا تقبل الجديد من الافكار الا بحذر شديد وقد ضعفت فيها الهمم وفترت بها العزائم وتضاعف بينها عدد الاميين ممن ركبهم الغرور فلجوا في الغواية وانتفخت اوداجهم وامتلات نفوسهم بالزهو والنزق والطيش وما دروا انهم طين حقير ...

نسي الطين ساعة انه طين   حقير فصال تيها وعربد
وكسى الخز جسمه فتباهى   وحوى المال كيسه فتمرد
يا اخي لا تمل بوجهك عني   ما انا فحمة ولا انت فرقد
انت لا تأكل النضار اذا جعت   ولا تشرب الجمان المنضد
انت في البردة الموشاة مثلي   في كسائي الرميم تشقى وتسعد
لك في عالم النهار امان   والرؤى والظلام فوقك ممتد
ولقلبي كما لقلبك احلام   حسان فانه غير جلمد
اماني كلها من تراب   وامانيك كلهما من عسجد
ايها المزدهي اذا مسك السقم   الا تشتكي الا تتنهد
انت مثلي من الثرى واليه   فلماذا يا صاحبي التيه والصد

وشعر ايليا ابي ماضي ذو جدة واصالة تروع المرء بساطته المحببة ووضوحه الاخاذ ، ويتميز بصدق التجربة وعفويتها ، وادبه انساني ينطلق في رحاب الفكر ويعج بالعواطف النبيلة . ويكشف جوانب الطيبة في النفس البشرية ، ولا يهدف من ورائه غير التعبير عن الانفعالات التي تستبد به وتسيطر عليه . واختط اسلوبا جديدا كلفه جهدا مشاقا للذود عن حقوق المستضعفين الذين يطالبون بمعاملتهم على قدم المساواة . وقد شاهد بأم عينه ما يعانيه الزنوج في امريكا من اضطهاد وتنكيل على أيدي البيض . فيقول

فوق الجميزة سنجاب   والارنب تمرح في الحقل
وانا صياد وثاب   لكن الصيد على مثلي
محظور اذ اني عبد
والديك الابيض في القن   يختال كيوسف في الحسن
وانا اتمنى لو اني   اصطاد الديك ولكني
لا اقدر اذ اني عبد
وفتاتي في تلك الدار   سوداء الطلعة كالقار
سجيء ويأخذها جاري   يا ويحي من ذاك العار
افما يكفى اني عبد

درج عدد كبير من الادباء على الكلام عن الحروب وما تجره على الشعوب الآمنة من ويلات ودمار فتعبث بمصائر الناس . وتفتك بالابرياء وتشيع الهلع والفزع فى النفوس من اجل توفير السعادة والرفاهية لنفر قليل على حساب شقاء البشرية واشلاء الضحايا وجماجم القتلى الذين يساقون الى المجازر والقلق النفسي . وهو يصور كل هذا بشكل رائع مؤثر محلقا في اجواء طليقه والموهبة الخلاقة ...

جلست وقد هجع الغافلون   افكر في امسنا والغد
وكيف استبد بنا الظالمون   وجار على الشيخ والامرد
فخلت اللواعج بين الجفون   وان جهنم في مرقدي
وضاق الفؤاد بما يكتم   فأرسلت العين مدرارها

ذكرت الحروب وويلاتها   وما صنع السيف والمدفع
وكيف تجور على ذاتها   شعوب لها الرتبة الارفع
وتخضب بالدم راياتها   وكانت تلم الذي تصنع
فباتت بما شيدت تهدم   صروح العلوم واسرارها

نساء تجود باولادها ... على الموت والموت لا يرحم
وجند تجود بأكبادها ... على الارض والارض لا تعلم
وتغدو الطيور باجسادها ... فان عطشت فالشراب الدم
وفي كل منزلة مأتم ... تشق به الغيد ازرارها

امن اجل ان يسلم الواحد ... تطل الدماء وتفنى الالوف
ويزرع اولاده الوالد ... لتحصدهم شفرات السيوف
امور يحار بها الناقد ... وتدمي فؤاد اللبيب الحصيف
فيا ليت شعري متى تفهم ... معاني الحياة واسرارها

وغني عن البيان كون ايليا ابو ماضي كان من الصق شعرائنا المعاصرين بالطبيعة وهو مظهر يكاد ينفرد به وحده ، فقد استثار في اغوار نفسه شتى الاحلام والرؤى الغنية بالصور المنطلقة . وامدته بالحياة الثرة والفعالية الخصبة وشعره في هذا المجال شعر حياة وتجربة لا شعر صناعة وزخرف يعبر الاسماع ولا يصل الى القلوب فقد وجد امثلة الجمال الحق كلها في مشاهد الطبيعة الضاحكة فزودته بعناصر الخيال الواسع الرحيب فيقول ...

وليك الليل راهبي وشموعي ... الشهب والارض كلها محرابي
وكتابي الفضاء اقرأ فيه ... سورا ما قرأتها في كتاب
وصلاتي الذي تقول السواقي ... وغنائي صوت الصبا في الغاب
وكؤوسي الاوراق القت عليها ... الشمس ذوب النضار عند الغياب
ورحيقي ما سال من مقلة الفجر ... على العشب كاللجين المذاب

وافتتن ايليا ابو ماضي بحب الطبيعة وما فيها من مناظر خلابة تأخذ بمجامع القلوب وتوحي بالفتنة والسحر والجمال فعاش في ذلك الجو العابق بخمرة النشوة والمرح يعلو محياه طيف ابتسامة . ويملأ الفرح جوانحه وتشع عيناه بالطهر والبراءة . واتخذ الغاب منزلا يأوي اليه ومسرحا لاحلامه الراقصة فعبر عن مشاعره تجاهه بامانة تنتزع الاعجاب ورسم صوره البديعة بريشة الفنان البارع وصبها في قالب قوي التعبير . فكانت الطبيعة مصدرا من اهم مصادر الالهام لشاعريته الخلاقة ...

واثبت ايليا ابو ماضي قدرته على اجتذاب القراء الواعين بعد ان عبر عن معان عميقة تلاقي التجاوب في كل نفس وتبرز لنا شخصيته في ذروة انسانيتها لصفاء نفسه وحبه للغير واغضائه عن مساوىء الاخرين وحشد كل امكانياته ومواهبه لرسم صورة نابضة بحرارة الحياة للقيم الاخلاقية الرفيعة ، من نكران للذات ونقاء سريرة وايثار شامل مع نبل العاطفة وصدق الوجدان وروعة التضحية في مجالات النجدة والاستغاثة وهو بمنأى عن التعصب الاعمى والغواية الحمقاء والنزوة الطائشة فيقول ...

حر ومذهب كل حر مذهبي ... ما كنت بالغاوي ولا المتعصب
واحب كل مهذب ولو انه ... خصمي وارحم كل غير مهذب
يأبى فؤادي ان يميل الى الاذى ... حسب الاذية من طباع العقرب
لي ان ارد اساءة باساءة ... لو انني ارضى ببرق خلب
حسب المسيء شعوره ومقاله ... في سره يا ليتني لم اذنب
اني اذا نزل البلاء بصاحبي ... دافعت عنه بناجذي ومخلبي
وارى مساوئه كأني لا ارى ... وارى محاسنه وان لم تكتب
والوم نفسي قبله ان اخطأت ... واذا اساء الي لم اتعتب
انا من ضميري ساكن في معقل ... انا من خلالي سائر في موكب
فاذا رآني ذو الغباوة دونه ... فكما يرى في الماء ظل الكوكب

وانه لمؤلم حقا ويحز في نفسه ان تقع عيناه اللتان تومضان ببريق الرأفة والحنو على طفل يتيم متشرد وهو يرى فيه غرسة نامية ستكبر وتتدلى قطوفها اليانعة وثمراتها الدانية لتقطفها الانسانية التي تعقد آمالا جساما على اطفال اليوم ورجال الغد . فمنظر الطفل اليتيم وهو في اسماله الرثة وجسمه الهزيل وجبينه الشاحب وشفتيه الذابلتين وعينيه المنطفئتين وما تترسب في اعماقه من الطيبة والبراءة والسذاجة تثير فيه الخواطر الحزينة واللواعج الدفينة . فيعالج الموضوع بروح طافحة بالعطف والحنان فيقول...

انني كلما تأملت طفلا ... خلت اني ارى ملاكا سويا
قل لمن يبصر الضباب كثيفا ... ان تحت الضباب فجرا نقيا
اليتيم الذي يلوح زريا ... ليس شيئا لو تعلمون زريا
انه غرسة ستطلع يوما ... ثمرا طيبا وزهرا جنيا
ربما كان اودع الله فيه ... فيلسوفا او شاعرا او نبيا

صحيح ان ايليا ابو ماضي شاعر ذو نزعة انسانية ، وان كل اعماله الادبية التي اكتمل فيها عنصر الحياة تعكس شعوره الانساني ، ولكنه كان بالدرجة الاولى انسان انبثق من صميم العروبة فخلجاته النفسية تتأثر بواقع البلاد العربية وما تتعرض لها من هزات سياسية وحوادث رهيبة وصراع مرير ... ومن الطبيعي ان تكون قضية فلسطين في طليعة القضايا التي استأثرت باهتمامه الكبير واستوجبت عنايته الفائقة بعد ان وقف على طرف من قصتها المروعة

وادرك بثاقب عقله ماساتها الدامية التي لم يشاهد التاريخ البشري نظيرا لها في جميع ادواره . فقد تشرد اكثر من مليون عربي من وطنهم السليب واغتصبت اراضيهم الطيبة وانتهكت حرماتهم فهاموا على وجوههم في القفار بلا ماوى وامسوا في خيامهم الممزقة عرضة لتساقط ثلوج الشتاء وهدفا لعصف الرياح الشديدة وهم يقاسون اظفار الجوع والاملاق على مسمع ومراى من الضمير العالمي الذي اقر بان تكون فلسطين موطنا لشرذمة من شذاذ الافاق وقطاع الطرق ونفايات الشعوب لينعموا ببيارات البرتقال وبساتين الزيتون وحقول القمح التي تتماوج فيها السنابل الشقراء ، واصبحت ملاذا لهم يعيشون فيها الفساد . فندد ايليا ابو ماضي باليهود ومؤيديهم الذين شدوا ازرهم واعترفوا بحقوقهم غير المشروعة في دولتهم اللقيطة فيقول.

الارض الخيال وآياته   وذات الجلال وذات السنا
تصير لغوغائهم مسرحا   وتغدو لشذاذهم مكمنا
بنفسي اردنها السلسبيل   ومن جاوروا ذلك الاردنا
لقد دافعوا امس دون الحمى   فكانت حروبهم حربنا
وجادوا بكل الذي عندهم   ونحن سنبذل ما عندنا
فقل لليهود واشياعهم   لقد خدعتكم بروق المنى
فليست فلسطين ارضا مشاعا   فتعطى لمن شاء ان يسكنا
وان تهجروها فذلك اولى   فان فلسطين ملك لنا
وكانت لاجدادنا قبلنا   وتبقى لاحفادنا بعدنا
وان لكم بسواها غنى   وليس لنا بسواها غنى
فلا تحسبوها لكم موطنا   فلم تك يوما لكم موطنا

وليس من شك في ان المراة الجميلة اروع مخلوق يدب على الارض لما فيها من بواعث الفتنة والجاذبية ، وما في انوثتها الطاغية من سحر الاغراء . ولا يساور القارىء المثقف ادنى ريب في ان الشعراء في مقدمة الفنانين الموهوبين الذين ينفعلون لجمال المراة الطارح فيهيمون في وادى الحب والاوهام تستحوذ عليهم الهواجس والطيوف .. غير ان ايليا ابا ماضي وهو في عنفوان حبه الجارف لم ينس شوقه العارم للطبيعة وتعلقه الوثيق بها والتي طالما تغنى في محرابها وهو يصلي في معبد الفن الاصيل فيقول...

يريد الحب ان نضحك   فلنضحك مع الفجر
وان نركض فلنركض   مع الجدول والنهر
وان نهتف فلنهتف   مع البلبل والقمري
فمن يعلم بعد اليوم   ما يحدث او يجري

ويطل العيد على الكون فيشيع البهجة في النفوس ويغمرها بفيض من اشراقته الساطعة وتنتاب ايليا ابا ماضي الحيرة ، وهو يسائل نفسه .

ـ ماذا اقدم لحبيبتي من هدية توائم جمالها الاخاذ وحسنها النفاذ ، وتظهر ماأكن لها من مودة صافية واخلاص صادق ووفاء عميق ولكنه وهو في غمرة ذهوله ارسل لها

أي شيء في العيد اهدي اليك   يا ملاكي وكل شيء لديك
اسوارا ام دملجا من نضار   لا احب القيود في معصميك
ام خمورا وليس في الارض خمر   كالتي تسكبين من لحظيك
ام ورودا والورد اجمله عندي   الذي قد نشقت من خديك
ام عقيقا كمهجتي يتلظى   والعقيق الثمين في شفتيك
ليس عندي شيء اعز من الروح   وروحي مرهونة في يديك

واذ صح مني العزم على تناول شعر ايليا ابي ماضي بالدراسة لا بد من القاء اطلاله عجلى على قصيدة الطلاسم الطويلة فهي تحتاج الى الاستفاضة في البحث ، لاستكشاف الجوانب الرائعة في عملها الفني ، وتستلزم اكتناه جميع ما فيها من الاراء الطريفة التي اعلن فيها شكه وحيرته امام كل شيء .

والطريف في هذا الصدد ان العالم النجفي الجليل محمد جواد الجزائري تصدى لهذه القصيدة ليدحض ما فيها من افكار جريئة بقصيدة بديعة طبعت في كتاب تحت عنوان ـ حل الطلاسم ـ ومن هنا يتضح لنا مدى الاهمية التي صادفتها الطلاسم في الاوساط الادبية . ومنها

جئت لا اعلم من اين   ولكني اتيت
ولقد ابصرت قدامي   طريقا فمشيت
وسابقى ماشيا ان   شئت هذا ام ابيت
كيف جئت كيف   ابصرت طريقي
لست ادري

اتراني كنت يوما   نغما في وتر
ام تراني كنت قبلا   موجة في نهر
ام تراني كنت في   احدى النجوم الزهر
ام اريجا ام حفيفا   ام نسيما
لست ادري

لــذة عنــدي ان   اسمع تغريد البلابل
وحفيـف الـورق   الاخضر او همس الجداول
وارى الانجم فـي   الظلماء تبدو كالمشاعل
اتــرى منهـا ام   اللــــذة مني

لست ادري

كم قصور خالها البا   ني ستبقى وتدوم
ثابتـات كالرواسي   خالـــدات كالنجوم
سحب الدهر عليها   ذيله فهي رسـوم
ما لنا نبني ومـا   نبنـي لهدم

لست ادري

عجيبا للناسك القا   نت وهـو اللوذعـي
هجر الناس وفيهم   كـل حسـن مبـدع
وغـدا يبحث عنـه   في المكان البلـقع
ارى في القفر ماء   ام ســراب

لست ادري

كم فتاة مثل ليلى   وفتى كابن الملـوح
انفقا الساعات في الشا   طيء تشكو وهو يشرح
كلما حدث اصغـت   واذا قـالت ترنـح
احفيـف المـوج   سر ضيعـاه

لست ادري

في مثل البحر اصدا   ف ورمـل ولئـال
في كالارض مـروج   وسفـوح وجبـال
في كالجـو نجـوم   وغيـوم وظـلال
هـل انـا بحـر   وارض وسمـاء

لست ادري

انني جئت وامضـي   وانـا لا اعلـم
انا لغز وذهابـي   كمجـيء طلسـم
والذي اوجـد هذا   اللغـز لغز مبهـم
لا تجادل ذو الحجى   مـن قـال انـي

لست ادري

وما ان مضت خمس سنوات على هجرته الى امريكا حتى نشر الجزء الثاني من شعره بعنوان (ديوان ايليا ابو ماضي) الذي يضم طائفة من شعره في التأمل والوطنية والقصص الغرامية .

وفي سنة الف وتسعمائة وسبع وعشرين اطلع على العالم العربي ديوانه (الجداول) فاحدثضجة استحسان في المحافل الفكرية واستقبلته الاندية الادبية بما يستحقه من الحفاوة البالغة لماتحمله قصائده من قوى انسانية سخية ثره وطاقات عاطفية متفجرة بالتعبير عن مكنونات النفس باسلوب قوي متدفق ينبض بحرارة التجربة وصدق الانفعال مع تعميق الاختلاجات الوجدانية الثرية بالالوان والصور والتجارب الشعورية . فيجد فيه كل قارىء واع ضالته المنشودة ليطفيء ظمأه المضطرم .

وفي سنة الف وتسعمائة وست واربعين اصدر ايليا ابو ماضي ديوانه (الخمائل) فكان فتحا مبينا في الادب العربي فقد اوجد آفاقا جديدة فلقي من الرواج والاقبال ما لفت اليه الانظار ونال حظا كبيرا من الذيوع والانتشار .

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه طرق موضوعات لم تعرفها الاداب العربية في كل عصورها وهي تحتاج الى نظرة فاحصة وكشف دقيق لما تنطوي عليه من قيمة فكرية لاضاءة الجوانب الداخلية فيها فلا نطلق حكما مبتسرا خاليا من روح الاصالة والابتكار .

ان العمق في التحليل للانتاج الادبي اساس لكل تقييم في مفهوم النقد المعاصر وينبغي ان يكون في حـدود الاستساغة فلا يتعداها .

وفي سنة الف وتسعمائة وتسع واربعين اشترك ايليا ابو ماضي في مؤتمر اليونسكو المنعقد في بيروت، وفي اثناء زيارته للبنان استدعته الحكومة السورية الى دمشق واقامت له بعد ظهر الخميس المصادف لليوم السادس من كانون الثاني مهرجانا ادبيا بلغ حد الروعة تحت رعاية فخامة رئيس الجمهورية . وفي ختام الاحتفال علق فخامة الرئيس الاول شكري القوتلي على صدر الشاعر وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تكريما للعبقرية المتمثلة في شخص ايليا ابو ماضي . وقد القى في تلك الحفلة الراقية قصيدة ممتعة منها .

حي الشام مهندا وكتابا   والغوطة الخضراء والمحرابا
واهبط على بردى يصفق ضاحكا   يستعطف التلعات والاعشابا
روح اطل من السماء عشية   فرأى الجمال هنا فحن فذابا
هذي هي الدنيا التي احببتها   وسقيت غيرك حبها اكوابا
وسرى سناء الوحي من آفاقها   يغشى العصور ويغمر الاحقابا
الحق ما رفعت به جدرانها   والخير ما زانت به الابوابا
فاستنطق التاريخ هل في سفره   مجد يضاهي مجدها الخلابا
شابت حضارات ودالت وانطوت   امم ومجد امية ما شابا
الامس كان لها وان لها غدا   تتلفت الدنيا له اعجابا
يا ويح نفسي لم تطاردني النوى   وتهدمني القلب والاعصابا
ودعت خلف البحر امس احبة   وغدا اودع ها هنا احبابا

ومن نافلة القول ان ادعي لنفسي استيعاب دقائق شعر ايليا ابي ماضي والالمام بكل ما فيه من روائع فكرية وسوانح شائقة والواح فنية تعبق بالعواطف النبيلة وتسيل بالعذوبة الرائعة في هذه العجالة ... فقد كرس هذا الشاعر الموهوب كل كفاءاته ومجهوداته لخدمة الانسانية جمعاء وهو القائل

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به   فانه احمق بالحرص ينتحر

وقد ادلى بارائه الصريحة على رؤوس الاشهاد وفاض على لسانه كل ما يضمره في اعماقه من انطلاقات عاطفية فقلب بشعره العقائد البالية والتقاليد السقيمة راسا على عقب وهو القائل ..

ما قيمة الانسان معتقدا   ان لم يقل للناس ما اعتقدا
والنور منبعثا ومنتشرا   ان لم يكن للناس فيه هدي

ان من يتحف المكتبة العربية بهذه الثروة الفكرية والخرائد الشعرية التي يقف الانسان حيالها مندهشا لن يموت وان تلاشى جسمه عن الانظار . فان روحه الرفافة ستظل مجنحة الاطياف لا يطويها العدم . وان آثاره الخالدة في الادب والحياة تبقى فواحة العبير لا تعروها صفرة الذبول، زاخرة النور تنبعث منها الامال الباسمة التي تدفع بالانسان الى عالم افضل . وتدعوه الى استغلال مباهج الحياة التي تطغى عليها روح المحبة والوداعة والرضا عبر العصور .

بغداد   **خضر عباس الصالحي**

في رثاء ابو ماضي

ربعت لموتك واحة وزهور ... وحنا عليك البلبل المسحور
وبكتك ساقية الفت خريرها ... وشكا فراقك بعدها الشحرور
وعلا «الجداول» و«الخمائل» ذلة ... مثل الايامى ما لهن نصير
واصيب « باخوس » عليك بلوعة ... وبكاك بالدمع السخين « سمير »
ابه ابا ماضي مضيت وانني ... من لوعة حرى عليك كسير
قد كنت لي نعم الصديق وان تكن ... بيني وبينك انهر وبحور
علمتني معنى الحياة وحبها ... وسبرت غورا انت فيه خبير
سجلت بالشكل الصريح لواعجا ... قد ضمها قلب حملت كبير
وبثثتها لم تخش لومة جاهل ... فكأنك المحرار حين يشير
وعرفت ربك لا كما لقنته ... جنات عدن عنده وسعير
وعشقت ابداعا لديه ونفحة ... فيها لروحك متعة وعبير
ابه ابا ماضي وانك شعلة ... صقلت جبين الشعر وهي تنير
ما كنت تنفث من فؤادك زفرة ... كيما يصفق قائد وامير
بل كنت ترقص للطبيعة وحدها ... فيها صلاتك نغمة وشعور
نور الحباحب في الدجى لك مشعل ... وشذى الزهور غذاؤك الموفور
غذيت روحك بالجمال ونوره ... فاذا تناجك لذة وخمور
ما كان شعرك لفظة بل روضة ... انا من شذاها ذلك المخمور

* * *

يا من فتحت عقولنا « بطلاسم » ... طارت بنا حيث النفوس تطير
وانرت بالشك العميق قلوبنا ... والشك للقلب الكبير نمير
كيف انتهيت من الحياة الى الردى ... وسطا على اشعاعك الديجور ؟
وبلغت خاتمة المطاف بحيرة ... تتلو سؤالك والجواب عسير
« أكذا نموت وتنقضي احلامنا ... في لحظة والى التراب نصير ؟ »

الموصل — **بشير مصطفى**

قصة سورية

الشيطان كسب المعركة

بقلم محمد حاج حسين

ooo

«انا انتهيت»، وزفر غيظا، وتمشت الرعدة في مفاصله، وحدق بي طويلا، وقد التمعت صفرة رهيبة في وجهه الاسمر المسنون، واستطرد صاحبي قائلا: لقد أسفرت المعركة، المعركة بيني وبين الشيطان عن هزيمة مرة، فطردني من الجنة، واسلمني الى وحدة قاتلة لتعصف بي الام لا قبل لي بها.

لقد ضقت ذرعا بالوحدة المضيضة، وبرمت بالحياة البوهيمية التي كنت احياها، واحسست بذلك الظمأ الذي لا يرتوي الا بالاستقرار في حياة زوجية ممرعة تنطلق على جنباتها الراحة، ويغمرها هدوء البال، وبعد بحث طويل استطعت ان اخطب «نهال» فقد خلقها الله دمية فتانة يترقرق على اهابها جمال غلاب يأسر العين، ويغزو كل جارحة في الانسان، وصفقت جوانحي جذلا، واحسست بالسعادة الرقة تفيض بي، وتسقيني من كا سها المعسولة ... واقول لك باختصار ان «نهال» مثل اعلى لكل انسان يرغب في الزواج لما امتازت به من جمال ورقة وسمو روح، فقد ابدعها الله لتكون نعمة في هذا الوجود الكابي الذي تتعثر به الوان الشقاء.

واندفعت في حبها باخلاص، وتقدمت الى اهلها طالبا يدها، ووافق اهلها على زواجي بها، فشعرت بان الدنيا لا تسعني لفرط مسرتي، فقد كانت فوق ما اتمنى، ورحت انسج الاحلام الوردية في بيت تمرح فيه اطياف السعادة، ويقضي على الحياة العابثة التي كنت اجهد في التخلص منها

واعتزمت الزواج بسرعة، ووافقت على رغبتي، فقد كنت اتعجل الساعة القريبة التي يضمنا فيها مثوى واحد، وتوثقنا وحدة لا انفصام لها فان كل لحظة اقضيها بعيدا عنها تسلمني الى تعاسة فاتكة.

وانتقيت معها شقة فاخرة في حي جميل يتصف بالهدوء، واخترنا الاثاث الانيق، فقد كنت اريد ان يكون بيتي جنة صغيرة يتألق فيها الفن، ليتألق حبنا في جو كله رقة واناقة وجمال ... واهملت اعمالي، وانا مهندس ناجح، لانقل الاثاث الجميل، واعمل على تنسيقه في مهجع حبي، حتى اذا ازدهت الدار به عقد قراننا، وانتقلنا اليه لننعم في هذا الوكر الذي اخترناه عشا لحبنا العميق.

كنت في الشقة ذات مساء أفكر في تنسيقها لتكون آية في الذوق والبهجة عندما سمعت جرس الباب يرن، وخفق قلبي طربا، فقد توقعت ان تكون الزائرة في هذه الساعة، الحبيبة نهال، فلا بد انها سألت عني في بيت اسرتي، فاخبروها انني في الشقة، فجاءت لتؤنسني بدلالها وحلاوتها، وتشاركني في ترتيب اثاث بيتنا الذي سيضمنا في وحدة مكينة، وحب عميق، واسرعت الى فتح الباب، ورجفت قدماي، عندما رايت امامي امراة غريبة لا أعرفها، والقيت عليها نظرة خاطفة، وتبين لي انها فاتنة الجمال، ووقفت مبهوتا لا ادري ماذا تريد، وخيل لي انها قد تكون اخطأت في بغيتها، فلا شك انها تريد بيتا اخر ..

وبددت حيرتي بقولها: هل تسمح لي بالدخول؟

وقلت متلعثما: اظن انك اخطأت.

وقاطعتني: كلا انا اقصد هذه الشقة ..

— ولكنني وحدي.

— لا تخف .. فلن آكلك

— تفضلي.

وافسحت لها الطريق، ودخلت الدار بخطوات رشيقة فيها دلال وغنج وشعرت بحرج شديد، فقد تأتي نهال على حين غرة، ولا يدري الا الله ماذا تكون النتيجة؟

واستقرت الحسناء المجهولة على كرسي في الصالون، وجلست بقربها اتأملها، وازددت اعجابا بحسنها الذي ينبض اخاذا في كل عضو من جسدها الذي أفرغ في اروع قالب من الفتنة المسحورة.

وهينم علينا صمت وجيز .. وبددته الحسناء بقولها: ارجو الا اكون قد ازعجتك في هذه الزيارة.

وكدت اتوسل اليها ان تخرج بسرعة، فقد كان قلبي ينذرني بشر، ولكنني اردت ان اكون سيدا مهذبا فقلت: أهلا وسهلا .. شرفت الدار. هل تأمرينني بخدمة؟

— انني جارتك اسكن في الشقة التي تقابل شقتك.

— تشرفنا.

— اصابني ضيق شديد في البيت، وكدت اختنق من الوحدة، فوجدتني اقرع بابك لنتحدث قليلا.

— فرصة سعيدة.

— هل تتزوج قريبا؟

— بعد شهر ان شاء الله.

— اتمنى لك حياة زوجية سعيدة.

— اشكرك.

— الحياة الزوجية مرة.

ولم ادر بماذا اجيبها .. وفجأة رايتها تبكي بحرارة وتطلعت اليها بذهول وحاولت ان اسري عنها، وقلت: لا اجد معنى لهذا البكاء، فانت ..

وقاطعتني، وصرخت: لا تحاول ان تعزيني .. انني بائسة.

— كل انسان معرض للالم، ولكن يجب الا يستسلم له.

— انني اتمنى الموت.

— انك لا تزالين في فجر عمرك، فلا معنى لهذا التشاؤم.

وهزت راسها، ومسحت دموعها بمنديلها، وتمتمت: ارجو لك حياة زوجية غير التي احياها.

وسكتت هنيهات، ثم تابعت: منذ ساعة حضر زوجي الوحش الى البيت، وضربني بغلظة دون سبب حتى أدمى اعضائي.

وبكت ، وحاولت ان أرفه عنها ، فكانت تردد من خلال جهشاتها : زوجي وحش ضار .

وحرت في القضية التي اتبعها لاتخلص من هذه الورطة الشائكة ، فنهال تعلم انني موجود في البيت، وهي لا تستطيع فراقي طويلا ولا بد ان توافيني لتشاركني الراي في تنسيق الاثاث .. ولا استطيع ان اتصور النتيجة عندما ترى هذه الحسناء معي ، وفزعت الى الله اضرع اليه ليلهمها ان تذهب ، وتريحني من هذا الوصب الذي ينسكب علي بقسوة ، .. ويبدو ان الله قد رق لحالتي ، فمسحت دموعها ، ونهضت وهي تتمتم : لقد ازعجتك كثيرا . لا تؤاخذني .

وخرجت وقلبي ينبض من الفرح، وشيعتها الى الباب ، وانا ادعو لها من كل قلبي ان يوفقها الله مع زوجها واستدارت نحوي ، وقالت بلهجة حزينة : لا فائدة من دعائك .. انه وحش رهيب ، والحل الوحيد هو الطلاق .

وانسربت من البيت كالطيف .

واسرعت بمغادرة الشقة خوفا من عودتها مرة اخرى ، فقد كانت في حالة يأس قريب من الجنون وهي بحاجة الى من تبثه شكاتها ، لتخفف من بلواها ، ولست اريد ان اكون ذلك المحسن .

وعدت في صباح اليوم التالي الى البيت ، فقد كنت في عجلة من امري، فانا اريد ان انتهي بسرعة من تنسيق الاثاث ، لاعقد قراني على نهال ، واحظى بها في زيجة وثيقة .. وما مضت علي لحظات حتى رن الجرس فتمشى الروع في صدري خشية ان تكون هي . وصدقت مخاوفي ، ودخلت متشحة بقميص النوم الرقيق، وفغرت فمي دهشة ، وجلست على كرسي ، ووضعت ساقا على اخر ، تهزه برشاقة ، وانحسر القميص عن جزء من جسدها ، الذي بدا في بياضه كصفحة رجراجة من الفضة . وسال لعابي رغما عني .

وراحت تسرد علي مأساتهافزوجها يعذبها ويضربها بغلظة،ويحرمهاكل متعة حتى انه يضن عليها بشراء ثوب .. ولعنت في سري هذا الزوج الذي يقسو على هذه الفتنة الطاغية . وقلت اخيرا : عليك ان تأخذيه باللين، وتثيري عطفه فالرجل يتأثر في اللين اكثر من العنف .

ـ انك لا تعرفه .

ـ انت مفرطة الذكاء ، فيجب ان تعرفي كيف تتسللين اليه حتى يتم السلام بينكما .

ـ لا فائدة ترجى من ذكائي .

ـ لماذا تزوجته اذن ؟

ـ لقد احبني ، وبادلته الحب ، ثم وضح لي بعد الزواج انني كنت واهمة .

ـ المراة اللبقة تعرف كيف تأسر زوجها .

وصرخت بحقد :انه يحب راقصة اجنبية ، وينفق امواله عليها ، وقد بلغت قحته الى حد انتزاع مجوهراتي مني ليهديها لها .

ـ والنتيجة ؟

ـ لا بد من الطلاق .

ـ لا تهدمي بيتك بيدك . انها نزوة عابرة ، ولا بد ان يعود اليك مكفرا عن خطيئة .

ـ يستحيل ان اظل معه . انني طلبت منه الطلاق ، ولكنه رفض .. وسكت لا ادري بماذا اجيب .

وفجاة اقتربت مني حتى لاصقتني وهبت انفاسها الحارة تؤجج النار في عروقي ، وانهارت مقاومتي ، ورايتني اشدها الي بقوة واحتويها بين ذراعي ، لاشتف ثغرها بقبلة من نار ...

وتملصت مني ، وصحا ضميري يؤنبني بغلظة ، وتمثل لي طيف نهال الرقراقة يتهمني ، فترنحت الما وصرخت : ماذا فعلنا ؟

وحجبت وجهي بيدي ، اتفادى منظرها وصحت : ارجوك ان تذهبي



الى بيتك ..

ولكنها هجمت علـــي تطوقنـــي بذراعيها ، وتضمني ضمة هاصـرة صدرها وقالت : لا تكن ابله .

وانتصر الشيطان في المعركة التي نشبت بيننا ، وانقدت لندائه اللعين ، ومات ضميري ، على مذبح هذاالجسد البكر الذي كنت اجد فيه النعيـــم المقيم .. واستمرأت هذه اللـــذة الحرام حتى اصبحت لا اطيق فـراق جسد سامية الذي يتألق امامـــي بفتنته الداعية ، ويدعوني الى مائدة حافلة باطايب الحب .

لقد مات بي كل حس ، وانتفى مني كل وجدان . وذهلت عن نهال ، ورحت اتفنن في خلق الذرائع لاؤخر زواجي بها . فقد كنت رغيبا في العب مـن هذه الكاس التي كانت تتيح لي لذة اسره ، فسامية لا تدخر وسعا فـي ارضاء كل نزوة حتى اصبحت اسير جسدها المترع في الاثم بلذة فارهة ، ولا يعنيني الا ان ارتوي من هـــذا الرضاب الشهي .

ولاحظت نهال تغيري الفجائي ، فقد كنت في الماضي اتعجل الزواج ، ولا اطيق فراقها ، .. ولكني اصبحت الان لا ازورها الا في فترات متقطعة ، ولا احدثها عن الاماني الحلوة التـي كنت ابدع في تلوينها عندما احدثهـا عن زواجنـا .

وتضايقت نهال ، وعصرها الالم ، وشعرت أن هناك امرا قد غـيرني ، فعندما كانت تحدثني عن ميعـــاد زواجنا ، كنت اتفادى الحديث معهـا في هذا الموضوع ، حتـــى ضاقت ذرعا ، وقالت لي ذات يوم ، وقد نزا بها الغضب : صارحني يا عادل . هل فتر حبك لي ؟

ـ ما هذا اللغو ؟ انك تعلمين ان كل جارحة بي تعبدك .

ولقد كنت صادقا في هذا ، فرغم استيلاء سامية علي ، بقيت على حبي لنهال زوجي فـي المستقبـــل ، وام اولادي ، ولكنني مع هذا اريــد ان اطيل فترة الخطوبة ليتـاح لي ان اروي ظمأي من ذلك الينبوع الـذي يسفح علي اللذائذ .

وبرزت مشكلة جديدة .. فقـد صارحتني سامية ذات مساء انهـا تبغي الطلاق من زوجها لان حياتهـا معه اصبحت لا تطاق .. وقلت لها : لا لزوم لهذا الطلاق .

وصرخت : اذن انت لا تحبني .

ـ انت تعلمين انني اعبدك .

ـ لو كان هذا صحيحا لما اردت لي هذه الحياة المسمومة معه .

ـ لا بد ان يثوب الى رشده .

ـ اسمع يا عادل . سأطلقه . هل انت على استعداد لتتزوجني ؟

وشاع الاضطراب فـــي كيانـي ، وقرأت بغريزتها ذعري من هذا القول فصاحت : هل انت خائف ؟ اتريـد ان تتزوجني ؟

ـ ولكنك تعلمين انني خاطب .

وجلجلت ضحكتها متندرة : ليس اسهل من فسخ الخطوبة .

ـ ولكنني احب خطيبتي .

وعبست ، وصرخت : وانا ؟

وتريثت قليلا ، ثم قلت : الحـل الوحيد ان تنقطع علاقتنا .

ـ يا خائن ..

وصفعتني على وجهي وهي تصرخ : لقد مللتني بعد ان ارتويت مني .. ولكنني احبك ، ولـــن اتركـــك ، وسأتزوجك شئت أم ابيت .

وافترقنا على جفاء .. وصحـــا ضميري ، وعولت على تركها ، والعودة الى خطيبتي ، لانني في الواقع بدأت اتضايق من هذه العلاقــة الاثمــة ، وشعرت ان حياتي اصبحت تتلظـى في الجحيم .

ولكنني في اليوم التالي ، وجدتني ضعيفا ، وحنثت بوعدي ، وذهبت الى البيت ، وما مكثت قليلا حتـى دخلت سامية ، وخفت الي تطوقني بذراعيها ، فنسيت عهودي مع نفسي ، وانجذبت اليها .. وقالت ضاحكة : لقد ثاب الي عقلي .. ولـن اطلــق زوجي .

ـ احسنت .

ـ ولكن يجب ان تؤكـــد لي ان علاقتنا ستظل بعد زواجك

ورعش جسـدي ، فقد كان هـــذا العهد اقوى مني ، لانني لا استطيع ان اخدع « نهال » حبيبة قلبي ، ولما اطرقت كتمثال جامد قالت : ارايت انك ستلفظني بعد زواجك .

ـ اعاهدك على انني ساطيل مـدة الخطوبة حتى يشعر كل منا بالملل من الاخر .

ـ لن املك ابدا .. لانني احبـك باخلاص .

وفي هذه اللحظة رن جرس الباب فتوجست واشرت اليها أن تكف عن كل نبسة وحركة ، ولكنها انطلقـت ضحكتهاوخازةوقالت: لماذاهذاالخوف؟

وتوالى رنين الجرس ، ونغماتـه تقع في مسامعي كالسهام المسمومة ، واطبقت بيدي على فيها امنعها مـن الضحك حتى يعتقد الطارق انـه لا يوجد احد ، فيعود ادراجه اتقـــاء للفضيحة المزلزلة .

وقفزت بسرعة ، واسرعت شبـــه عارية الى البيت ، ولحقتها ، ولكنهـا كانت اسرع مني ، وفتحت البـاب ، ووقف شعر رأسي ، عندما واجهت خطيبتي ..

وحدقت نهال بي ، وشحب وجهها ، واخـذت تنقل نظراتها بيني وبـــين سامية ، وتمنيـت لـــو ان الارض انشقت وابتلعتني .

وقذفتني ببصقة ، واستدارت على عقبيها ، ووقعت علـى الارض فـي غيبوبة ...

ورشت سامية الماء على وجهي حتى استيقظت ...

وقالت : قم يا حبيبي . كل شيء على ما يرام .

ـ ماذا حدث ؟

ـ كل الذي حدث انني انقذتك من نهال .

وصرخت : كيف ؟

ـ المراة المحبة لا تعدم وسيلـــة لتنتصر ، وفكرت حتى اهتديت الى الحل السعيد ، فكلمتهـــا بالهاتف ، واخبرتها ان خطيبها يخونـــها .. وحددت لها الساعة التي نجتمع فيها، لتراننا ..

ولم استطع ان اسمع اكثر مـن هذا ، فضربتها بعنف ، وطردتها ، وانا اصرخ : اخرجي ايتها الافعى ... لن اراك ما حييت .

وهكـذا خســرت خطيبتـي .. وفقدت كل امل بعد ان تـزوجت ، وسعدت ..

اما انا فليرحمني الله .

القاهرة — محمد حاج حسين

السؤال الحائر

وتسألين « هل تحبني »
وتشردين في المدى البعيد
كزورق وحيد
ربانه الشريد
يجوس في البحار
مدندنا بلحنه الحزين
مفتشا عن مرفأ امين
ويجفل الفؤاد من سؤالك العجيب
وما تزال «هل تحبني» بظلها المريب
ترن في الضلوع

✶

لا كنت من سؤال
يا من ترن ، ما تزال
بسائر الدروب
فتفزع القلوب
وتقتل اليقين
يا صوت « ليلى » يعبر القفار
يا همس الف عاشق وعاشقة
يفتشون في جنون
بحثا عن اليقين
فيفزع اليقين
وربما يموت

✶

يا ذلك السؤال
يا من تطوف ، ما تزال
بين الحقول والسهول والجبال
بوجهك الكئيب
بحزنك المريب
كم أمقتك
كم أزدري حروفك الصماء
حروفك البلهاء

يا اجوفا ، بلا معان
ماذا وراء هذه الحروف
ماذا وراءها ، يا قاتل الحنان
يا زارعا لكل شك
يا ذلك الكئيب

✶

لا تطرحيه ذلك السؤال
لا تنطقي بهذه الحروف
أليس في انطلاقها بلا قيود
تحفز الشكوك
ومصرع اليقين
هذا الغلام الطاهر الطعين
هذا الذي طعنته بذلك السؤال
ففار فورة ومال
كطائر ذبيح

✶

لا تطرحيه
هذا السؤال الشاحب المريب
الست تدركين ما الذي يعنيه
وما الذي يدب فيه
اليس في العيون يشرق الجواب
اليس كل لمسة جواب
اليس كل همسة جواب

✶

لا تسأليني ذلك السؤال
بل اسألي فؤادك الحبيب
فعنده الجواب
ان تسأليه مرة أجاب
وانني لفي انتظار ذلك الجواب

القاهرة **عبد المنعم عواد يوسف**

بقلم هرون كوبلاند

ترجمة يوسف اسعد داغر

منازع العلم الحديث : الموسيقى

○○○

لقد طلب الي ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية لجامعة كولمبيا ، ان اتحدث اليكم عن « الموسيقى ، مجلى من مجالي النفس البشرية » ويخيل الي ان معظم الملحنين والسواد الاكبر من المؤلفين الموسيقيين ، يتفقون معي (١) رايا ويقرونني على القول بان تلحين اية قطعة موسيقية ، جديدة ، انما هو ضرب من الحديث في موضوع معين . من التعارف بين الناس انه كلما سما الموضوع وتسامى ، صعب بالتالي ، اخراجه على الوجه الاكمل . ان موضوع حديثي معكم اليوم سام جليل ، اكاد معه اشعر ان لا طاقة لي للنهوض به على الوجه الامثل . الا انه تبادر الي ، بوصفي مؤلفا موسيقيا وملحنا انني اعالج كل يوم ، مثل هذا الموضوع بالذات ، لا سيما والتعبير بالموسيقى اي بالالحان ، منزع اصيل من منازع النفس البشرية . فانا عندما الحن قطعة موسيقية ما ، ابدو في نظر عبيط ، مغفل ، يرنو الي باستهجان اني لا أقوم باكثر من رسم علامات سود دقاق على صحيفة بيضاء مدرجة السطور . ولكن اذا ما وضعنا جانبا هذا كله ، فانا بالفعل امام مشهد انساني ، امام عملية خلق وابداع هي من مستلزمات فن الموسيقى . والحق يقال ، ان هذا العمل بالذات ، عنيت به وقمت على ممارسته منذ اكثر من ثلاثين سنة ، دون ان يفقدني هذا المراس الطويل ، شيئا من شعوري ، وايماني بما للموسيقى من قوة عظيمة على التعبير والافصاح ، وبما فيها من قدرة على اظهار ما في قرارة النفس البشرية من طاقات دفينة لا تحد .

ان موضوع حديثي الليلة واسع ، رحب ، فسيح الجنبات . ولذا يصعب علي ان اقرر كيف اتناوله ومن اين ابدا . ففي بادىء الامر ، لنسال ، ما هي الموسيقى وماذا تعني يا ترى ؟ وهذا السؤال وامثاله ، كثيرا ما طرحه الناس فى الاجيال السالفة . والاجوبة التي اعطيت لهذا السؤال لم تبد مقنعة يوما من الايام ، وذلك لسبب بسيط جدا هو ان الموسيقى مجال رحب فسيح لا حدود له ولا سدود ، وان لها من التأثير البالغ ما تعجز التعريفات عن استيعابه ونقله . فمن شاء ان يحاول وصف ما للموسيقى من وقع فى النفوس خاب ظنه وباء بالفشل ، فالامر ليس من السهولة بحيث يظن الناس ويتوهمون . فمن يحاول ذلك كان مثله مثل من يصف الموسيقى لاخرس اصم او كمن يوقد الشمع في بيت لعميان . فاذا كان يصعب على المرء ان يصف تأثير نغم واحد يطلقه وتر واحد فرد ، فكم يكون اصعب لدينا ان نصف تأثير سمفونية بكاملها ؟ والذي نعرفه يقينا ، ان معظم الناس تتجاوب نفوسهم لسبب من الاسباب ، وترتقص طربا امام نغم رخيم يشنف منهم الاذان . وهذه الانغام والالحان ، منفردة كانت ، او مؤتلفة ، تثير احاسيس من الطرب تتمطى في اعماق ثنايا النفس ، اذا ما انطلقت ، في ايقاع وانسجام وائتلاف من آلة صائتة منغمة او من حنجرة عامرة . فمهما يكن وقع الموسيقى التي نستمع اليها او نطرب لها ، فقلما تترك المستمع اليها ، خلي البال ، قليل الاهتمام . فاصحاب الحساسية الموسيقية يستجيبون عميقا لاية هزة طرب مثيرة ، ولذا نراهم لا يستطيعون بشكل من الاشكال ، الانقطاع عنها يوما واحدا ، فتصبح لديهم من الضرورات التي لا بد منها .

وهذا الكثير اجيء به هنا ليس بالفعل سوى شيء قليل للغاية . فكما انه من العسير على الانسان ان يحدد كنه الحياة ، كذلك يصعب عليه ويشق جدا ، ان يحدد الموسيقى ويعرف بها . فاذا ما جاءت الموسيقى وراء كل تحديد وتعريف ، نرجو مع ذلك ان نبين كيف ان الموسيقى ، باعتبارها فنا ، هي تعبير عن مطلق النفس البشرية . اسمحوا لي ان احلل هنا ، بروح اقرب ما تكون الى روح العلم اذا ما جاز التعبير ، ما الذي يتم بالفعل ، عندما انصرف الى تلحين قطعة موسيقية . فالفكرة ، بحد ذاتها ، تبدو على شيء من الغرابة ، اذ يصعب على المرء ان يحلم او يتصور ان باستطاعته ان يراقب نفسه وهو يؤلف او يلحن ، اذ اقل ما يناله من اذى ، اذا ما قام بذلك ، انقطاع حبل التفكير عليه ، في عملية التلحين الفني التي يقوم بها . ومع ذلك لا يمكن لاي ان يدعي قط انه عندما امضي في تلحين قطعة موسيقية ما ، لا تمر في خاطري افكارا واضحة بما في الكلمة من معنى ومدلول . ومن جهة ثانية ، عندما الحن قطعة ما لا يعني اني اسبح في الهواء او اهوم في الخواء او الاحق خيالات في الفضاء . فبدلا من هذا ، يبدو لي اني منهمك بهالة من الاحاسيس الاساسية . واود هنا ان اشدد على الكلمة « الاساسية » ، اذ ان هذه الاحاسيس ليست على الاطلاق غامضة مبهمة . من المهم جدا ان ندرك هذا الامر ادراكا تاما . فهي ليست غامضة لانها لا تخطر لذهن المؤلف الملحن كخاطرات موسيقية لها خصائصها المميزة والمفردة . فمنذ اللحظة التي تخطر منها او تبرز معها ، تبرز على قوام مميز وطابع مفرد ، انما هو قوام تنبو عنه الكلمات وتعجز الاوضاع والمصطلحات عن استيعابه وهذه الافكار الاساسية او الجمل الموسيقية الاصيلة كما يخطر لي ان اسميها ، تتوسل الي ان ابعث فيها الحياة ، وانفخ فيها الروح ، كما انها تتطلب من مبدعها بان يعطيها القالب او القوام الذي يلائمها ، ويسكب فيها الشكل واللون والصورة التي توضح منها كل ما فيها من طاقات الابداع والخلق . وهكذا ترى ، كيف ان نوازع الانسان العميقة تفرغ او تتجسد في رقاع من الهيولي جعلها الفن ناطقة .

---

(١) هرون كوبلاند (١٩٠٠ —) مؤلف موسيقى اميركي وملحن مشهور . ولد في بروكلن . من القطع الموسيقية التي وضعها : الصالون مكسيكو — وبلي الفتى — الاعصار العاتي — وكلها سمفونيات وقطع للعزف على البيانو او في الاوركسترات .

او ليس مـن الغريب المدهش بعد هـذا ، ان مادة كالصوت لا شكل لها ولا قوام ولا مجاس لها ، تحمل لنا مثل هذه المعاني الكريمة والمدلولات السامية ؟ ان الموسيقى فن تتجلى فيه قدرة الانسان على تغيير مادة تتصل بمعايشه الى جملة من الاصوات والنبرات والالحان ، فيـها مـن الانسجام والترابط ، والتأثير والتوجيه الذي يكشف في الوقت اللازم والمكان اللازم والشكل اللازم ، معاني الحياة ومثل الحياة . فالموسيقى ، كالحياة نفسها ، لا حدود لها ولا سدود ، ولا نهاية لها ولا اجل ، اذ بالامكان دوما بعثها من جديد ، وخلقها ثانية . وهكذا ان اسمى حالات الروح البشرية واكملها غبطة وطربا يمكن الطلوع بها من الموسيقى في ابهى واطرب تجلياتها .

يطيب لي ان اتساءل هنا عما تختلف الموسيقى عـن الفنون الاخرى ، بوصفها تعبيرا عن مطلب الروح الانسانية. اهو اختلاف فكري نظري ، ام اختلاف ادبي ، موضوعي ، كما هي الحال مثلا في الفنون التصويرية ؟ هل ترمي الى اذابة القلب البشري وصهره شجى واسى ، ام انها تجعل هم الروح الاول ، الاهتمام لها والاعتناء بها ؟ طاب لي يوما ان اقرا فقرة في كتاب وليم جيمس (٢) المعنون : «مبادىء علم النفس » يشتم منها ان هذا الفيلسوف كان يخشى كثيرا ان يؤدي الانقطاع للموسيقى بالكلية والانصـراف المفرط اليها ، للتاثير على اعصاب المستمع وايهانها .

ولا اظن ان جيمس جاد في هواجسه وظنونه هذه ، اذ انه يقترح مداواة لهذه الحالة ومعالجة لـها : « ان لا يسمح المستمع لنفسه بالتاثر من حفلة موسيقية يحضرها ، ما لم يعبر عن مدى تاثره ، فيما بعد ، بطريقة من الطرق ، كأن تتنازل مثلا ، عن مقعدك في المترو ، لسيدة واقفـة امامك » ويستثني من تأثير الموسيقى الموهن ، ابناء الفن انفسهم الذين يستسلمون لها وينقطعون اليـها ، اولئك الذين ، كما يقول جيمس نفسه عنهم : « ان فيهم من الاستعداد الموسيقي ما يجعلهم ياخذون تاثيرها اخذا عقلانيا او نظريا مجردا » نحن نرى انفسنا هنا امام فكرة راجت رواجا كبيرا ، فكرة تسأل هل ان الموسيقيـين الموهوبـين ياخذون الموسيقى بصورة عقلانية ؟ من الثابت الاكيد انهم لا يفعلون ذلك . هم يأخذون موسيقاهم كما يأخذها ، اي واحد من الناس ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو ان ادراكهم للموسيقى وتفهمهم لفنونها وحالاتها وشروطها ، يتعدى بكثير ادراك العادي من الناس لها وتذوقه لتاثيرها ، ليس الا .

فالموسيقى ، كغيرها من الفنون الاخـرى ، ترمـي للاستئثار بجميع انتباهنا وجعلنا تحت وقعها المطلـق . وهذا التاثر العاطفي الذي لها على الناس ، يقوم اصلا ، في ما لها من طبيعة محيرة مربكة ، هذه الطبيعة التي تفـرض على المرء ان يكون ابدا ، لدى اول بادرة او اشارة ، يقظـا حيثما تدعو الحاجة الى ذلك ، والا ضاع المستمع في لجج من العلامات والجمل الموسيقية . فالنفس الواعية ، اليقظة، تتبع بغبطة وابتهاج ، المطاوي والمسالك التي يسلكها الملحن المتلاعب بالالحان تلاعب اللاعب بالكرة ، مقدما الاهم منها على الاهم ، مقتفيا اثر كل ثنيه ، او التواء او منعرج فـي النغم ، مبديا سرائرها وانفعالاتها امام كل نبرة او رجة او ردة او بحة ، حسبما تنطلق من لسان الالة المنغمة او تندفع من حنجرة المغني الشادي . تقتضي الموسيقى من صاحبها بالطبع ، النشاط والانتباه ووعيا عقلانيا في الملحن والهاوي المستمع . ولكن هي ابعد من ان تكون مجرد رياضة عقلية ليس الا . فالتاليف الموسيقي او التلحين باعتباره رياضة ، قد يبعث الاثارة في قلة من الناس او فـي فـريق مـن الاخصائيين الثقاة . ولكن هذه الرياضة وهذه الاثارة التي تبعثها ، لا مدلول لها ولا طعم ، ما لم تتغلغل الحانها الشجية وتنفذ نبراتها ،انغامها طي الضلوع لتصل الى الصميم من اغوار النفس الدفينة . ففي هذا التزاوج الحقيقي بـين القلب والروح وفي انصباب النشاط العقلـي الموسيقـي المقصود للتاثير عاطفيا وروحيا ، ما يميز الموسيقى كفن ، ويفردها عن غيرها من الفنون الرفيعة .

ان للموسيقى من قوة السطو والسلطان والتأثـير المباشر ، ما حمل الناس على النظر اليها نظرهم الى فن ساكن مستقر مبلور ، كأنها كانت دوما على ما نراها عليه اليوم ، من العسير وايم الحق ان نتصور او ان نتبين سير التطور الذي قطعته الموسيقى في الغرب ، ما لم نطلع بايجاز ، على الادوار التي مرت بها في سالف الازمان . ان المؤرخـين يؤكدون لنا ان الموسيقى انما كانت في عهد المسيحية الاولى، موسيقى احادية النغم اي على وتيرة واحدة من النغم واللحن ولعل ابهى صورها واشكالها في هذا الطور واروعها على الاطلاق ، هي الموسيقى الغريغورية . ولكن من يستطيع ان يتصور الجهد الذي اضطلع به ، عبر الاجيال ، الملحنون ، والمؤلفون الموسيقيون ، لوضع موسيقى تتعدد فيها الانغام والالحان متساوقة مؤتلفة . وهذا الانسجام في ما تبلورت عليه صورة الموسيقى الجديدة ، يعود تاريخه الى نحو الف سنة مضت . فلا نزال نقف من هذا التطور العجيب موقف الحائر المشدوه .

ان موسيقانا الغربية تختلف عن الموسيقات الاخرى ، بهذه الناحية الفريدة ، وهي القدرة على ان نستمع ونستمتع بموسيقى تتألف اصلا ، من تعدد الالـحان والاصـوات وانسجام الانغام المعروف بالبوليفونيا . وهي تتكون اصلا ، من اصوات عديدة مستقلة بعضها عن بعض ، مترابطة فيما بينها، منسجمة في توافق واتساق وانسجام . من المثير حقا ان نتتبع بتؤدة تطوير الفكر الموسيقي في مظهره الايقاعي ، المتعدد النغمات . ويقتضينا البحث ان نضيف استطرادا ، باننا نرى انفسنا اليوم ، بفضل ما ننعم به من حرية فنية ، تتناول الايقاع والانسجام ، احسن وضعا بكثير ، ممـن تقدمنا ، لنتذوق مظاهر عدم تمسك الملحنين القدامى ، بالعرف والتقاليد الموسيقية المتبعة .

ومن التجارب الجريئة التي قام بها المؤلفون الايقاعيون القدامى في الموسيقى البوليفونية ، او المتعددة الانغام التي امتازت بشيء من المرح الممزوج ببعض مـظاهر الجمود

(٢) وليم جيمس ١٨٤٢ – ١٩١٠ فيلسوف اميركي من مشاهير علماء النفس هو ابن هنري جيمس ١٨١١ – ١٨٨٢ وشقيق هنري جيمس الابن ١٨٤٣ – ١٩١٠ . ولد في نيويورك ، وتخرج من كلية الطب فـي جامعة هارفرد ١٨٦٩ ، وتولى تعليم التشريح والفيسيولوجيا وعلم الصحة كما علم الفلسفة فيها فيما بعد . فكان من الماهدين في فلسفة السلوك او البراغمتزم . من مؤلفاته المشهورة : « مبادىء علم النفس » ١٨٩٠ و « الرغبة في الاعتقاد » ١٨٩٧ و « اختبارات دينية متنوعة » ١٩٠٢ و « ابحاث في التجريبية الراديكالية » .

والتأخر ، ان تم لنا ما نرى اليوم وننعم به من غنى موسيقي في عهد البعث . فالتعبير الموسيقي اخذ يتطور جذريا ونوعيا ويكسب شيئا فشيئا الروعة والجلال والجمال . وقد بلغ هذا التطور الذروة ، حوالي عام ١٦٠٠ ، في هذه الروائع والقطع الموسيقية الدينية والمدنية التي ظهرت اذ ذاك في جميع انحاء اوروبا . والذي يجب ان نلاحظه هنا ، ان هذا التطور العظيم انما تم قبل ظهور نابغة موسيقى العصر : باخ (٣) بنحو مائة سنة . ومن هذه الموسيقى البوليفونية المتعددة الاصوات والانغام ، صوتية كانت ام آلية ، نافخة او وترية ، تطورت الموسيقى الايقاعية تدريجيا كما وصلت الينا وهو تطور جاء طبعيا نتيجة محتومة للانغام الموسيقية المستقلة عندما تطلق معا وتثير الانغام المؤتلفة .

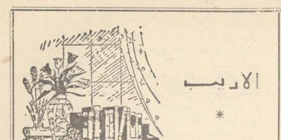
واذ ذاك حدث ما لم يكن بالحسبان . فهذه الانغام المؤتلفة ، بعد ان احسن تنسيقها والتاليف بينها ، اخذت تشق لها طريقا مستقلا عرف بها . وهذا التطور الايقاعي اخذ يبرز اكثر فاكثر ، كقوة مولدة ، حتى ان البوليفونيا نفسها اضطرت للتخلي عن بعض سيادتها واستقلالها لتتوازعها مع المضاعفات العمودية الكامنة تحت الانغام الايقاعية . وقد اوجز جون سبستيان باخ ، هذا العملاق بين عمالقة الموسيقى ، وجبابرتها الكبار ، هذا الدور الحاسم من ادوار تاريخ الموسيقى ، اذ عرف ان يوفق ، الى اقصى حد ، بين الجملة البوليفونية ، والجملة الايقاعية في التاليف الموسيقي . وتاريخ الاندفاع صعدا الى الامام الذي تلي هذا التطور الموسيقى ، لا يحتاج قط الى الايراد والسرد لانه معروف جيدا من الجميع . ومع ذلك ، علينا دوما ان نتذكر ان عهد الازدهار الموسيقي لا يبدا قط بباخ ، اذ ان كل دور من الادوار الحاسمة التي مرت بها الموسيقى بعد باخ ، ادى عمله التاليفي الخاص . وقد كان من اثر باخ ان عجل بطلوع عهد جديد على الموسيقى ازهى وازهر ، يمثله على خير وجه ، هيدن (٤) وموزارت (٥) .

وقد جاء في اعقاب الموسيقيين النمساويين ، عدد من الموسيقيين المتعصبين للمدرسة الرومنطيقية . الا ان السنوات الخمسين الاخيرة شهدت في فن الموسيقى ، حركة رجعية قامت تناهض المدرسة الرومنطيقية ، ادت الى توسيع وترحيب مدى كل الاطوار والادوار الخاصة بمنابع الموسيقى الفنية .

ان اهتمامنا بتاريخ الموسيقى في الماضي يجب الا يمنعنا من رؤية ما يوجد خارج العالم الغربي من انماط متنوعة من الموسيقى المثيرة ، معظمها يتعارض تماما واصول الموسيقى الغربية . ان قرع الطبول والدفوف الافريقية المثيرة ، وهذه الالحان الشرقية المتالفة من الميلودرام ، والانغام المطنة المدوية التي ياخذ بها سكان اندونيسيا ، وهذه الاصوات الانفية التي تنطلق في ارجاء الصين

---

(٣) جون سبستيان باخ ١٦٨٥ ـ ١٧٥٠ موسيقار الماني من اشهر نوابغ الموسيقيين في العالم ، ولاعب ارغن ومؤلف ايقاعي بوليفوني مشهور تلقى فن الموسيقى على ابيه امبروسيوس باخ وشقيقه جون خرستوف باخ ١٦٧١ ـ ١٧٢١ درس في معهد لونبرغ الموسيقي وعمل في الكورس عازفا على الكمان في الاوركسترا الملكية في ويمار ١٧١٤ ـ ١٧١٧ ، وعمل مرتلا في معهد القديس توما ، كما تولى ادارة قسم الموسيقى في جامعة ليبزيغ ودرسدن . قام بزيارة الملك فريدريك الكبير في بوتسدام ١٧٤٧ وقام بالتدريب على المعازف (البيانوات) الحديثة الاختراع . وضع كثيرا



*

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ٢٥ ليرة كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

*

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

*

تليفون : الادارة ٢٣٨١٩ Direc : 23819 / المنزل ٢٥١٣٩ Dle : 25139 Tél.

*

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير اديب

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

والبيان ، كل هذه الاصوات والانغام والالحان تختلف اختلافا بينا اساسيا عن موسيقانا الغربية ، بحيث نفقد كل امل او احتمال في تفهم هذه الانغام وتذوقها . ومع ذلك ، فهذه الموسيقات المتباينة ، تمثل مع هذا ، جانبا محترما ، من الوعي الفني والتراث البشري الروحي . فاذا لم نقم بأي مجهود يرمي الى مقارنة موسيقانا وهذه الموسيقات الاخرى ومعارضها نكون قد حكمنا على انفسنا بالفقر

كذلك نحاول افقار انفسنا عندما نحاول اقصار اهتمامنا على حقبة معينة من تاريخ الموسيقى في الغرب . ان السواد الاعظم من القطع والاغاني الموسيقية التي تشنف اليوم آذاننا ، لا يزيد عمرها على مائتي سنة في ابعد حد . فهي من مخلفات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فلا شيء من هذا يشبه وضع الموسيقات الشقيقة الاخرى . فالموسيقى كغيرها من الفنون الجميلة الاخرى لها ماضيها كما لها حاضرها ومستقبلها . انما نرى الموسيقى ، خلافا لغيرها من الفنون الاخرى ، تقاسي اليوم شديدا من ازمة حادة تتردى بها : هي اعراضها عن الاهتمام غير المتناسب بهذا الماضي ، بالرغم من حدوده الضيقة . هنالك اليوم عدد كبير من هواة الموسيقى ومستمعيها ، تبدو عليهم سمات السأم والحيرة والارتباك . فقد يذهبون للظن ان مستقبل الموسيقى انما ينحصر في ماضيها . وهذا الشعور يولد بدوره ، نتيجة لهذا الظن ، نقصا في الاهتمام بحاضرها ، ويهمل النظر الى مستقبلها .

ان هذا الموقف يقفه الجمهور من فن الموسيقى ، اصبح حرجا في عهد بلغ فيه اهتمام الناس بالموسيقى ، حدا لم يكن يتوقعه اكثرهم تفاؤلا . فمنذ الشروع باذاعة مقطوعات موسيقية قوية من محطات الاذاعة المختلفة ، وانتشار صناعة استثمار الاصوات الغنائية ، وطلوع التلفزيون والرقص الايقاعي ، حدث في عرف الاصغاء والاستماع الى الموسيقى ، ثورة عارمة . فالموسيقى القومية لم تعد وقفا على عدد مختار او نخبة ممتازة من الناس .

لا اعرف احدا قدر هذه الظاهرة التي حدثت منذ ثلاثين سنة ، حق قدرها ولا فطن ، على ما يبدو ، لما فيها من غرم وغنم ، وربح وخسارة لقضية الموسيقى نفسها . اما المنافع والمكاسب فواضحة ، بينة ، ظاهرة ، لا تحتاج الى ما يدل عليها ، بينما بعض المساوىء تكمن في ان ينظر ملايين المستمعين الى الموسيقى نظرهم الى ملجأ او ملهاة يتلهون بها مما يلاقون من اوصاب الحياة ومتاعبها اليومية .

فيستعملون آثار كبار الموسيقيين وروائعهم الفنية الخالدة كخط دفاع اول ضد ما يعتبرونه طغيان واقع الحياة اليومية . ان الاسترسال وراء هذه التقاليد والاخذ بهذه الاعراف يسدل ستارا كثيفا على آفاق الموسيقى اليوم . ان وضعا خطيرا يهدد مستقبل الموسيقى ، وهذا الخطر يكمن في ان قوة التعبير التي تتميز بها موسيقانا اليوم ، تفقد من قيمتها وتخسر من شأنها لتهافت الناس على موسيقى الاجيال الماضية تهافت الجياع على القصاع .

كل مؤلف موسيقي او ملحن يعمل وفقا لحدود طاقته وما ينعم به من احتمالات الزمان والمكان والتجاوب مع حاجات مستمعيه . وقد يحدث لاسباب خاصة ان يتشبث هواة الموسيقى وعشاقها بالاعتقاد القائل ان الموسيقى الخالدة او السامية ، يجب الا ترتبط بزمان ولا ان تتأثر باعتبارات تتعلق بالاين والآن . من السهل التثبت بما في هذا الرأي من حكم صائب . فالمقطوعة او المعزوفة الموسيقية التي يضعها موسيقار ما تحمل حتما مدى اختباراته وانطباعاته في الحياة بالشكل ذاته الذي يعبر فيه كل فنان عن فنه ومواهبه . فهو ينطق من نفسه ، بالمثل الفنية التي سادت العصر الذي رأى فيه النور وسيطرت عليه . فعلى المؤلف الموسيقي اليوم ، ان يأخذ بعين الاعتبار حالة العالم ووضعه الراهن . فالمقطوعات الموسيقية التي نضعها او نلحنها ، تعكس حتما شيئا من هذا الوضع ، حتى ولو من الوجهة السلبية . فليس من المنتظر من الملحن ان يرسم او يعطي موقفا معاكسا ، لمجرد اتصاله بنظارة لهم آذان صاغية يستمعون لمقطوعات موسيقية من العهد الماضي ، وهو مازق يبدو ان لا مخرج منه على الاطلاق ، فهو يعزل الجيل الجديد ، والمؤلفين الموسيقيين اكثر فاكثر عن الجماهير التي يجب ان يخاطبوها او يتصلوا بها .

ان مثل هذا الوضع يبدو غريبا . نحن نعيش في عصر يشعر شعورا عميقا بما للصوت من اثر بالغ . فالكلمات «صوتي» و « ما وراء الصوت » هي اليوم على كل فم وقرت في اذن كل طالب من طلاب المدارس . والحديث عن الذبذبات ، والوحدة الصوتية هو حديث النوادي والمجتمعات . فالمؤلفون الموسيقيون الذين كان يعول عليهم في التوجيه والقيادة ، قد اصبحوا اليوم على هامش الحياة ، او في حواشي دنيا الموسيقى . فاذا ما قدرنا ان سبعة اثمان المعزوفات الموسيقية التي نستمع اليها اليوم هي من مخلفات الماضي ، جاء تقديرنا هذا ضمن الواقع . ولما

من القطع الموسيقية الكنسية . فقد نظره ومات كفيفا عام ١٩٥٠ .

(٤) جوزيف فرانزر هيدن ١٧٣٢ — ١٨٠٩ موسيقار نمساوي الاصل والمولد ، تولى ادارة كورس كاتدرائية القديس استيفانس في مدينة فيينا ١٧٤٠ — ١٧٤٩ ، وعمل مدة في خدمة اسرة اشرهازي ١٧٧٠ — ١٧٩٠ . وخلال هذه المدة وضع بعض روائعه الموسيقية الخالدة من اوبرات وقداديس وقطع للعزف على البيانو ، وسمفونيات وصلوات واناشيد . ربطته وموزارت صداقة متينة ، وساهم بالسمفونيات التي وضعها ، في ايصال الموسيقى الجوقية الى الذروة من التأثير . جاء انكلترا عام ١٧٩١ حيث وضع ٦ سمفونيات جديدة ، ثم جاءها مرة ثانية عام ١٧٩٤ ووضع فيها ٦ سمفونيات اخرى جديدة . سكن ضواحي فيينا حيث وضع قداديسه الثمانية الاخيرة ، والنشيد الوطني النمساوي . ولعله اشهر من وضع السمفونيات بين كبار الموسيقيين .

(٥) جون جورج موزارت ١٧١٩ — ١٧٨٧ موسيقار الماني ، عازف على الكمان واستاذ مشهور من اساتذة الموسيقى . ولد في اوغسبورج من اعمال بافاريا . عمل مدة مديرا للجوقة الفنية فيها ومعلما للموسيقى . وضع للكمان مساقا جديدا ونهجا سويا كما وضع للبيانو قطعا عديدة للعزف ، وموسيقى كنسية ، واوبرات وسمفونيات كثيرة . كذلك وضع قطعا كثيرة للعزف على الكمان وعلى الارغن .

(٦) رتشرد وغنر ١٨١٣ — ١٨٨٣ ، موسيقار الماني خالد ، مؤلف وملحن من اشهر المؤلفين والملحنين . ولد بمدينة ليبزيغ . طلع على الناس بالدراما الموسيقية . تولى ادارة الجوقة الموسيقية العاملة على مسرح هذبورج وكونسبرغ ، وريغا . جاء باريس ودرس الموسيقى فيها . اتهم باشتراكه بثورة مايو ١٨٤٨ ، فهرب من المانيا الى زوريخ ، حيث بقي فيها . جاء لندن عام ١٨٥٥ . تزوج ابنة الموسيقار لست واقام في مدينة باروت حيث اسس مسرحا موسيقيا . له عدة اوبرات موسيقية ، كما له كتب عدة في الادب والشعر والنقد الادبي .

كانت الحفلات الموسيقية العامة هي اقصى ما يطمع فيه المؤلف الموسيقي والملحن ، للنهوض بفن الموسيقى ، كان الموقف اللامبالي الذي وقفه هواة الموسيقى من النزعات الفنية الحديثة، اكبر مثبط لهمم المؤلفين الموسيقيين والملحنين. فلكي ينصرف المرء بكليته للموسيقى، في مثل هذه الظروف بالذات، يجب ان يكون على جانب كبير من الهمة والثبات والنشاط .

فبالرغم من عدم وجود حافز قوي ومنشط ، نرى الموسيقيين في كل من اوروبا واميركا ، يحاولون جهدهم ، لتوسيع مجالات الفن الموسيقي وترحيبها . ان تاريخ الموسيقى في القرن العشرين ، حافل بالمآثر . فقد سارت الموسيقى فيه ، جنبا الى جنب ، والفنون الجميلة الاخرى ، في البحث عن منابع جديدة للوحي والالهام . فالرصيد المسجل يظهر بوضوح النتائج الباهرة . هنالك ، بدء ذي بدء ، طلوع حرية جديدة ، ترمي للكشف عن نواح جديدة من الايقاع . فالحاجة الشديدة للمزيد من الايقاع التي جاش بها العهد الماضي ، حل محلها اليوم امكانيات فنية ، ايقاعية اكثر تجاوبا من الماضي . وهذا الاطراد الذي كنا نلاحظه من قبل في الجملة الموسيقية الموزونة، حل محله اليوم ، اندفاع ايقاعي اكثر تعقيدا ، وانفذ وقعا واثرا ، واشد تنوعا، كما برز اكثر وضوحا وجلاء واصعب وصفا وتحديدا ، وقد حاول بعض الملحنين ، في الاونة الاخيرة الاتيان بموسيقى يقوم واقعها ، على التحكم بالعناصر الايقاعية الفنية التي تتألف منها القطعة الموسيقية . طلع على ما يبدو ، نوع جديد من الايقاع المنطقي الصرف ، ولكن لا نستطيع ان نقرر الان مقدار النجاح الذي يحالفه .

ثم ان مجال الامكانيات الايقاعية قد اتسع جدا في القطع الموسيقية الحديثة . فاذا تركنا جانبا المصطلحات التي جرت عليها كتب النصوص ، نرى ان العرف الايقاعي السائد قد جاء بالدليل القاطع على ان كل لحن او نغم يطلع علينا ، يبدو مقبولا اذا امكن تطبيقه والعمل به على الشكل اللازم والطريقة المؤاتية . فالايقاع والنشوز بين الاصوات المنغمة ، هي مجرد الفاظ نسبية ، ليس فيها شيء من الاطلاق والشمول . ان الاسس التي يجب ان تنهض عليها قوة النغم قد اتسعت بحيث اوشكت معالمها تخفى حتى على الاخصائيين ، بينما طريقة التلحين الاثني عشرية قد اهملت هذه الاسس وتجاهلتها تماما . ان صفار الملحنين ينعمون اليوم بحرية تعبيرية مربكة تثير عجيجا . ومن هذا العجيج ستخرج كتب نصوص جديدة .

فالى جانب التجربة الايقاعية جرى فحص جديد لطبيعة النغم الايقاعي وكنهه واتساع مداه وتحديد مقوماته المتشعبة ، وما فيه من خاصة مميزة لجمع عناصر التلحين وربطها معا ، لا سيما من حيث ارتباطه بالموضوع وقد رسخ في ذهن بعض الملحنين وجوب الاخذ بموسيقى لا موضوعية ، وهي فكرة غير مألوفة . ومثل هذه الموسيقى تسمع مادتها النغمية ، مرة واحدة لا غير ، دون معاودتها . كل هذا حدث كجواب لمن يتساءل عن المبادىء الفنية التي يجب ان تتوفر في الصورة الموسيقية . وهذا يفضي بالواقع للنهاية التي تفضي اليها الحالات الجديدة . فاذا ما انتهى معها المرء الى النتيجة المنطقية ، كان معنى ذلك التخلي نهائيا عن المبادىء البناءة التي نهجوها طويلا من قبل، والعزوف عنها، فيحصل توجيه جديد في فن الموسيقى.

يبدو لي احيانا ، وانا اتفرس الاتجاه الذي ستتجهه الموسيقى في المستقبل الطالع ، اننا نسقط من حسابنا عاملا انسانيا مهما ، يقوم في طبيعة الالات الجديدة التي ستطلع علينا في المستقبل . اليس من الممكن او من المحتمل ان نستيقظ يوما فنجد ان جميع آلات الموسيقية ، وترية كانت او نافخة ، قد حل محلها آلة الكترونية جبارة ، فيها من تقاسيم سلم الانغام والانواط ، ومن الامكانيات الصوتية الجديدة الكاملة ، ما يجعلها تحت سيطرة الملحن والمؤلف الموسيقي ومراقبته ، دونما حاجة الى معلق او ترجمان ايقاعي . ان جهازا من هذا النوع وبهذا الوصف ، سيحرر الايقاع من مستلزمات العقل الملحن المبدع الخلاق . ومن المحتمل جدا ان يفرض على طاقة الاذن الفنية في الانسان متطلبات لا عهد له بها من قبل .

ان عهدا جديدا شق طريقه البناء عبر حاجز الصوت ، من الصعب جدا ان نتوقع منه انغاما موسيقية على الطريقة التي طالما اعتمدتها الاجيال السابقة وكرستها . ولا بد لي هنا من الاعتراف والاقرار بان هذه الصورة تبعث في النفس الوجل والرعب . ولعل هذه الموسيقى التي ستطلع علينا في المستقبل ، هي هذه الموسيقى نفسها التي طالما سبق لرتشرد وغنر (٦) ان استشرف طلوعها وفكر بها. كل هذه الامور هي من حيز الخيال والتصورات الذهنية . وهنالك ، بعد هذا ، شيء واحد ثابت اكيد هو ان السياق الموسيقي سيأتي دوما وفقا لمناهج الحياة ومجاريها السائدة فطالما ان الروح البشرية تعمل وتجاهد ، على هذه الارض ، فستبقى الموسيقى بمظاهرها واشكالها المستبدة ، مظهرا من مظاهر الفنون البارزة التي تجد فيها الروح غذاءها المستحب ، والتعبير عما في قرارتها من مثل سامية .

يوسف اسعد داغر

مريه

ooo

يا مريه :

ليت لي ازميل فدياس وروحا عبقريه
وامامي تل مرمر
لنحت الفتنة الهوجاء في نفس مقاييسك ،
تمثالا مكبر

وجعلت الشعر كالشلال، بعض يلزم الكتف،
وبعض يتبعثر

وعلى الاهداب ليلا يتعثر
وعلى الاجفان لغزا لا يفسر
وعلى الخدين نورا يكسر
وعلى الاسنان سكر
وفما (كالاسد الجوعان) زمجر
يرسل الهمس به لحنا معطر
وينادي : شفة عطشى واخرى تتحسر
وعلى الصدر نوافير جحيم تتفجر
وحزاما ، كلما قلت قصير هو ،
كان الخصر اصغر

يا مريه :

ليت لي ازميل فدياس وروحا عبقريه
كنت ابدعتك يا ربة حسني بيديه

يا مريه :

ليتني في قمة الاولمب جالس
وحوالي « العرائس »
وانا في ذروة الالهام بين الملهمات
احتسي خمرة باخوس النقيه
فاذا ما سرت النشوة فيه
اتداعى واناديي يا بنات :
نقروا القيثار في رفق وهاتوا الاغنيات
لمريه

يا مريه :

ما لعشرينين باتت في سعير تتقلب
ترتدي ثوب عزوف وهي في الخفية ترغب
وبصدرينا بروميثيوس في الصخرة مشدودا يعذب
فبجسم الف نار ، وبجسم الف عقرب

انت ، يا هيلين

يا من عبرت تلقاءها بحرعرو قي الف مركب
يا عيونا كالينابيع صفاء ونداوه
وشفاها كالعناقيد امتلاء وحلاوه
وخدودا مثل احلامي ضياء وجمالا
وقواما يتحدى كبرياء واختيالا
ودما ضجت به كل الشرايين اشتهاء ياصبيه
تصطلي منه صباحا ومساء غجريه

يا مريه انا من افريقيه :
صحرانها الكبرى وخط الاستواء
شحنتني بالحرارات الشموس
وشوتني كالقرابين على نار المجوس
لفحتني فانا منها كعود الابنوس
وانا منجم كبريت سريع الاشتعال
يتلظى كلما اشتم على بعد : تعال

يا مريه

انا من افريقيه جوعان كالطفل الصغير
وانا اهفو الى تفاحة حمراء ،
من يلمسها يصبح مذنب
فهلمي ودعي الالهة الحمقاء تغضب
وانبئيها :
انها لم تحترم رغبة نفس بشريه
اي فردوس بغير الحب كالصحراء مجدب

يا مريه :

وغدا تنفخ في اشرعتي انفاس فرقه
وانا ازداد نأيا ،
مثل « يوليس » ،
وفي الاعماق حرقه
ربما لا نلتقي من بعد هذا
يا مريه

فتعالي وقعي اسمك بالنار هنا في شفتيه
ووداعا يا مريه !!

صلاح احمد ابراهيم
جامعة الخرطوم

قصة سورية

بقلم علي بدور

قارب الصياد

○○○

من الرحلات التي لا تنسى ، رحلتي مع والدي الى بحيرة العمق (١) كانت البحيرة لا تزال بعيدة . وما زال علينا ان نتحمل المشقة من السفر الطويل ، في سيارة عتيقة ، تدرج على طريق غير معبد . وفي خلال الرحلة كان والدي يحدثني عن البحيرة الواسعة .. عن الاسماك الملونة التي تكثر فيها ، وعن الصيادين الجريئين .. وعن القوارب الجميلة وهي تطفو على سطح الماء .. فتخالها تهتز هزة الاغراء والدلال . وكانت نفسي قد ملئت بالصور الموحية عن البحيرة ، وبالايام السعيدة التي يمكن ان اقضيها عند ابي .. وبجمال الجزيرة الصغيرة ، وبيوت العمال التي تناثرت ، والوانها المتناسقة ، المائلة الى البياض ، والتي يخيل للناظر من بعيد اليها وسط زرقة الماء الخفيفة ، أنها نجوم قد رصعت بها صفحة السماء الزرقاء .

وفي الصباح بعد ان قضينا ليلة باردة تزيد بردها ، ريح شمالية ، مصحوبة بزخات خفيفة من المطر ، وبعد فطور تألف من الدبس والعسل والتين الجاف وزبدة الجاموس ، اخذنا طريقنا الى القارب الذي سوف يقلنا الى الجزيرة الصغيرة ، على مسافة عشرة كيلومترات من قرية « قرق خان » . كان القارب صغيرا ، ومن قوارب الصيد ، حيث يمتطيه صيادان احدهما يدفعه بالعمود الطويل اذا كان قاع البحيرة قريبا ، او بالمجذاف اذا تعذر وصول نهاية العمود ارض البحيرة . وكان في القارب بعض اللوازم التي اتينا بها من المدينة ؛ منها كيس ارز يزن مئة كيلو .. وكان هناك كيسان من القمح فيهما مئة وخمسون كيلو .. وكان ابي بالاضافة الى ذلك كله ، رجلا بدينا ، طويلا ذا اكتاف عريضة ، يعادل كيسا من الارز ان لم اقل اكثر ! فلما انساب القارب على صفحة الماء ، شعرت لاول وهلة ان قشعريرة لذيذة تنتابني فيخفق مني القلب ، ويصعد الدم ، فيلون وجهي بلون القرمز المحبب الى العين ، مما دعا والدي لان يسألني :

ــ انها نزهة جميلة يا بني .. اليس كذلك ؟

ولم اجبه بشيء .. لقد اعقب الابتسامة الاولى ، حزن وخوف عميقا الجذور في نفسي . وكان حلقي قد جف نهائيا ، ولم تكن المياه كلها لتقوم بترطيب حلقي الجاف ، كنت اسمع عن البحر والبحيرات قصصا كثيرة . سمعت عن صيادين ماتوا وعن بواخر كبيرة طواها البحر بين لججه في صمت .. وعن اسماك كبيرة تبتلع الرجال دفعة واحدة .. وخيل الي لاول مرة في حياتي ، ان الموت ليس مجسدا في كيان خاص .. انه في كل مكان ، في اعماق البحار ، وفي ذرى الجبال .. وبين السهول الجميلة وفي الصحاري المحرقة .. وفي كل مكان تدب فيه الحياة .

واخذ القارب وجهته نحو الشمال .. وكانت الريح الشمالية تزداد حدة .. وزخات خفيفة من المطر ، تبلل منا الثياب ، وضباب كثيف ينتشر في كل الجهات ، فيسد علينا منافذ الافق . وكان قلبي الصغير آنذاك لا يتسع لكل هذه المخاطر دفعة واحدة ، فاخذت ارتجف ، وبدات الوذ بابي حاسبا اياه صخرة النجاة التي لا بد منها لكل غريق .. ولكن ابي اخذ يضحك .. لعله يريد ان يطمئنني .. او لعله شعر بالخطر الماثل في حالة المركب والجو العاصف المحيط بنا ، وهذا الحمل الثقيل الذي زاده ابي بسمنته ثقلا على ثقل ، فاراد ان يظهر لي سروره من خوفي ، علني ازداد هدوءا فلا يزداد الخوف عما هو عليه في صدري ، ولا ينتقل جرثوم الخطر من صدر الى صدر .. وليس في المركب بعد ، سوى ثلاثة صدور انسانية لا غير . فهدات بعض الشيء .. واخذت احول بصري عن يمين وشمال والى امام وخلف . كان الضباب يخف شيئا فشيئا ، وكانت الشمس المحتجبة ، تظهر في بعض الاحيان ، مطبوعة على صفحة المياه الراكدة ، وكان صوت القارب ــ وهو يجري بسرعة لا بأس بها بالاضافة الى حركة المجذافين ــ يبعث في نفسي شعورا بالروعة والعظمة لهذه المجاهيل التي تتبدى لعيني لاول مرة ، ولهذه المياه التي تطوي فيما بينها اكثر اسرار الحياة التي نعيشها على اليابسة ونجهل مقوماتها في هذه المياه الغافية ، ولكن الطمأنينة التي حاولت ان اتدرع بها لم تكن كافية لتبعد عني الخطر الذي اخذ يبتدىء من جديد ، في هذه المياه التي اخذت تستقر في قعر القارب .. ان حافة القارب اخذت تلامس حد الماء ، وفي كل اهتزازة غير عادية كانت كمية لا بأس بها تدخل القارب فتزيد من ثقله ، وتزيد من امكانية حدوث الخطر التي كنا في بداية الرحلة نظنها غير ممكنة الوقوع .

وبدا نقاش هادىء ، ولكنه فاعل ، بين ابي والمجذف عن الحل ، ايلقون بكيس الارز ام بكيس القمح ؟ وطال النقاش ، ان ابي يعتقد انه لا خطر علينا جميعا ، رغم الحمل الثقيل الذي ينوء به كاهل المركب . وكذلك كان رأي المجذف . ولعلهما لم يريدا ان يضحيا بالارز والقمح ، لانهما تعرضا خلال مدة طويلة ، لامثال هذه المفاجآت ، وكانت المفاجآت تمر بسلام على الاغلب . فالوقوف حيال الخطر موقفا حازما كهذا ، دعاهما للتسليم بانه لا خطر البتة رغم الجو العاصف ، والمطر الذي اخذ يزداد .. والمياه التي ترتشفها شفتا القارب بلذة وشغف والحمل الذي يزداد وزنه ساعة بعد ساعة . اما انا فكنت اتنقل من اول القارب الى اخره ، وبالعكس ، لعل في هذا التنقل بعض النجاة ، ولكن لم يكن من ذلك جدوى ، فلذت باكتاف ابي وضمني اليه بشدة موحيا لي بانه لا خوف علينا قط .. بينما كنت ابكي بشدة لا سبيل الى وصفها ، وبدت على وجهي امارات الهلع العميق ورأيت صورة الموت

---

١ ــ في لواء الاسكندرون

العابسة على صفحة المياه الصامتة .. وهي تشهد كل احزاننا ومخاوفنا ، فلا تحاول ان تستجيب لدواعي النبل والمروءة فتنقذنا من الخطر المحقق الذي نحن فيه .

عجبت غاية العجب لتصرف ابي .. كيف لا يلقي بكيس الارز او بكيس القمح ، او بنصف كليهما في البحيرة، فيرتفع القارب قليلا ، ومن ثم يسري اكثر ، وتكف المياه عن اغراقه بين لحظة واخرى ، ولكني عجبت ــ فيما بعد ــ لجراته وجراة المجذف، وراعني بحق ، هذا الطرز من الرجال ، الذي مرنته الحوادث على الثبات تجاه المخاطر ، بينما نحن الصغار ــ وقد جردنا من تجارب الحياة ــ نخاف ، ونضعف ، ثم نبكي مستسلمين بكليتنا الى القدر يقودنا الى المهالك والاخطار.

وطافت براسي الصغير كل ذكرياتي السعيدة والمحزنة وكل الحوادث الطفيفة التي تعرضت لها خلال السنين القليلة التي مضت علي وانا اسعى على وجه البسيطة .. كانت الصور تمر ، حمراء ، سوداء ، بيضاء وملونة كقوس قزح. وايقنت اننا هالكون لا محالة ، وتحدرت من عيني دموع كانت حارة ، مخلصة ، وبريئة ، واخذت ابكي بشدة كنت اعلم انني ما زلت بعد صغيرا ، لم اذق من الحياة لا حلوها ولا مرها .. لم اصبح شابا ، ولم اصادق الشابات الجميلات ، ولم انعم بانس الحياة ، فكيف يقضى علينا هنا .. انا وابي الذي احبه .. وهذا المجذف الذي له من يحبونه .. هذا اللعين الذي لم يقل لابي :

ــ يجب تخفيف الحمل يا سيدي. والا فاننا سوف نغرق لا قدر الله !

وحاول ابي عبثا ان يهدىء من روعي ان يفهمني بالاقناع مرة ، وبالقروش الوافرة ، مرة اخرى ، كي اصمت ، او اضحك ، وكنت كلما حاولت ان استجيب له ، ردني الضباب الذي عاود من جديد ، واخذ يحجب عنا منافذ الافق ، وانسكاب المطر الثقيل هذه المرة ، والريح الشمالية التي كانت تدفع القارب الى الخلف ، والذي كان مهما دفعه المجذف ، يسير ببطء ، وكانه يدور في حلقة مفرغة لا نهاية لدورانه فيها .

امحت من ذاكرتي كل الخواطر الحلوة ، والايام التي سوف اقضيها مع ابي في الجزيرة .. عن السمك الذي يملأ القوارب ، عن السكين القاطعة التي تقطع الرؤوس بسرعة.. عن الخبز الحار الذي يضعه الفران المجاور لغرفة نومنا .. عن الجواميس الجميلة ذات الحليب الممتاز ، وكذلك اخذت خواطري تنشط ، فتترك على صفحة الماء صورا لا نهاية لها ، عن المسرات التي خلفتها في المدينة ، والالعاب والمباهج التي حرمت منها الان ، وانتظرت ان اموت خوفا فلم امت ، او ان اموت غرقا فلم امت ، او ينقلب القارب ، فانجو على كتف المجذف ، الذي وعدني ذلك وهو يمازحني ويلاحظني ، وكان منظر ابي الذي لا يجيد السباحة قطعا ، وبرود اعصابه في مثل هذه الساعات النادرة الحدوث ، يغيظني حتى اوشكت ان اثور عليه .. ولكن ظلت الثورة مكبوتة اظهرتها على دفعات ، في مرات متتالية من البكاء الحاد الذي كان يصرفهما عن التفكير في الخطر الى محاولة اسكاتي وارضائي بشتى الاساليب والحيل .

كانت قمة جبل الذئب التي لاحت لعيوننا ، اشبه بالصخرة التي يتشبث بها الغريق .. وان كانت قمة جبل الذئب بعيدة .. وعالية ولا تصلها الا يد الله ، فانها بعثت في نفوسنا جميعا ، سحابة من الطمانينة الشاملة ولذ لنا منظرها ، لانها انستنا المخاطر، ودعتنا نطمئن الى وجود اليابسة ، والى وجود الناس عليها .. حتى اعتقدت لوحدي ، انني لو غرقت هنا ومت ، فانني ساكون مسرورا ، لانني اموت وحولي بعض البشر الاحياء على الاقل .. انني اشعر بالانس ما دام حولي اناس احياء ، لا بدمن ان يعثروا على جثتي ولو خيل اليهم لاول لحظة، انها سمكة كبيرة ، بالقياس الى السمك العادي الذي يصطادونه. ونظرت فيما حولي فرأيت كيس الرز ما زال في مكانه لم يتحرك انه لم يضطرب ولم يبك ، ولم يتحدث عن الخطر .. انه حرم من نعمة الفكر والشعور ، فاستراح من مشاهد الخوف المروع التي تبدت في لحظات الفرق الطارئة ولكنه لم يفرح مثلنا بالنجاة .. ولم تفتر شفتاه عن بسمة عميقة ، ولم يخفق في صدره قلب ، تميته الساعات السود ، وتحييه البيض منها

وفي قرية جبل الذئب ، مكثنا ثلاثة ايام .. ريثما اتانا مركب كبير يقلنا نحو وجهتنا ، وريثما تمر العاصفة بسلام . اننا لم نشهد منها الا صداها .. ولكن الهول جاء عقب ذلك .. وفي خلال الساعات الثلاث التي قضيناها في البحيرة لم تسقط ولا حبة ثلج واحدة . وكان ابي قد شعر ان الطريق الى المقر رغم قصره يبدو طويلا وسط زحام هذه العاصفة الهوجاء فامر المجذف ان يعرج على جبل الذئب ، وفي هذه القرية شعرت بالهدوء وتمتعت بنعمى هذا الشعور . واما هذا الجبل الذي فيها فليس جميلا فحسب .. انه عال ذو قمتين متجاورتين يفصلهما فراغ رهيب ، وفي اسفل الجبل تقوم قرية الجبل ، بضعة بيوت متوسطة وبيت المختار الكبير حيث فيه غرفة الضيوف الواسعة . وكان منظر هذه الجزيرة التي كانت جبلا بحق ، من امتع المناظر التي تسر العين وتفرح القلب. كانت قمتا الجبل مكللتين بالثلوج .. وكانت خيوط عريضة طولانية تتدلى

من القمة حتى اول القاعدة . وكان فيما حولنا مياه على منبسط النظر ، والقوارب تغدو خفيفة وتعود رزينة موقرة بالصيد ، تجمل المنطقة ايما جمال، وكان في الليل يسمع صوت عميق .. لعله صوت ذئب جائع في كهف بعيد من كهوف الجبل العديدة

كان اولاد القرية بؤساء للغاية ، ذوي ثياب وسخة وقديمة ، وايديهم سوداء من كثرة ما تراكم عليها من اوساخ ، وكان البؤس يعبر عن نفسه في اكثر من مكان ، حتى في بيت المختار ، وكان الرجال والنساء دائبي العمل شديدي الصبر ، وكان ربحهم قليلا جدا ، انهم يبيعون صيدهم من المتعهد بقروش قليلة ، ويبيعهم المتعهد بقروشهم هذه كل ما يلزمهم من زيت وصابون وسكر وشاي ، باسعار كانت مضاعفة ، وكنت اقف طويلا امام مطابخهم لاتأمل القدور وكيف تغلى فيها الماء ، وكيف يلقى بالبرغل فاذا نضج ، رش عليه بعض الزيت ، وينقضي الامر كله في دقائق ، اذ لا تلبث ان تمتلىء بطون جائعة ، بطون صغيرة وكبيرة ، وكنت اناقش بؤسهم براسي الصغير وبافكاري المتواضعة ، فلا اخرج بحل . وكنت اذا سالت ابي لم يجبني الا بابتسامة لها معناها .. كانت هذه الابتسامة تحيرني ، فاضيفها الى ما حيرني سابقا في قرية جبل الذئب .. القرية الاولى التي اراها في حياتي ، بعد المدينة النظيفة ، والشوارع العريضة ، والحافلات الكهربائية ، ودور اللهو ، والاطعمة المتعددة التي تحفل بها مائدتنا كل يوم .

ثم استأنفنا رحلتنا ، بعد ان هدأت العاصفة وخفت حدة الثلج الذي كان نعمة على الصيادين لانه يأتيهم بصيد وافر ، وبخاصة في ساعات الصباح الاولى الباردة التي كانت تدفع الاسماك الى المناطق الدافئة من الشطئان الرملية المنخفضة ، وكان القارب في هذه المرة كبيرا كانه غرفة بالقياس الى السرير الصغير الذي اقلنا الى جبل الذئب .

اعجبتني البحيرة لاول مرة .. قارب كبير لا يخشى علينا فيه من اي خطر ، وعاصفة هوجاء تولت شرقا وجزيرة صغيرة تنتظرنا بعد ساعة وتنتظر كذلك ضيفا صغيرا ، هجر مدرسته ليلقاها ويسعد فيها اياما من حياة اكثر ايامها متشابهة تمضي بين المدرسة والبيت ، وبين اللعب والنوم العميق .

لشد ما سرني استقبال العمال في المركز ، وكذلك استقبال الاهلين . ان كلا منهم يعدني بانه سياخذني معه في رحلة صيد ، والكل يريدني لو اصبحت صيادا مثله .. وكانوا قلة اولئك الذين نظروا الى ثيابي النظيفة وصحتي الطيبة ، وقارنوها بثياب اطفالهم الرثة ، وبصحتهم المتأخرة يوما بعد يوم ، وكان كيس الارز رفيق الرحلة الصامت يستريح لدقائق على ظهر احد الصيادين الذين قطعت بانهم لن يتذوقوا منه ولا ارزة واحدة .. لانهم ولدوا ولم يكن مقدرا لهم ان ياكلوا الارز ، ويلبسوا الثياب النظيفة ، انهم ولدوا صيادين ، وولد اولادهم ، ابناء صيادين ، ويا تعاسة هؤلاء الذين آمنوا ان نشاطهم في الحياة مرصود ، وانهم لن يفلتوا من عقال هذا الراصد ، ولو تسلقوا السماء وقذفوا بانفسهم من عل ، لما سقط الصياد الا في قاربه ، ولما نام الا في فراشه ، ولما مات الا موتة البؤساء!!

وفي خلال الاسبوع الذي قضيته في الجزيرة عند ابي ، تمتعت بالحياة جيدا ، فقد ذهبت في رحلات الصيد وعشت مع الصيادين ورأيت بعيني كيف تسدد الحربة لصدر السمكة ، مهما صغرت لتخرجها طعينة مستسلمة ، وكان السمك كثيرا ما يموت بين ارجلنا في القارب ، يقتله الهواء الصرف ، وكان الماء يحييه . وكذلك ذهبت في رحلات ممتعة لصيد البط ببنادق الصيد الخاصة .. وكان البط والطيور الاخرى الملونة تأتي افواجا افواجا وتسبح في انتظام كانها في عرض مائي جميل . وكانت طلقات البنادق تعبث بهذا العرض وتترك اكثر من طعينة ، تصبغ مياه البحيرة الزرقاء بدمها القاني . وفي الليل عندما تهدأ الحركة ويفتر ضجيج الصيادين حول المستودع ، كانت ترتفع جلبة اخرى من الفران ومن عماله الذين يعدون الخبز للصيادين .. وفي الاسحار كثيرا ما كان ابي يستيقظ فاستيقظ معه ، واذهب نشيطا الى الفران لاعود ببعض الرقاق الابيض النظيف الذي كنت اتسلى بالتهامه ريثما ترتفع الشمس في السماء ، ويؤتى الينا بالفطور الذي تنوعت الوانه . وكان منظر الجواميس وهي تخوض المياه القليلة العمق ترعى طعامها المفضل من الشطئان المعشوشبة ، من ابهج المناظر بعيني واحفلها بالامتاع والمسرة وبخاصة اذا تعلقت صغار الجواميس بذيول امهاتها لتسبح في الماء ، او اذا تعاونت جاموستان على انقاذ جاموس صغير من الغرق ، فان ذلك كان من المناظر التي لا تنسى ابدا .

عندما حان موعد العودة اردت البقاء ، واوشكت ان ابكي . لقد احببت البحيرة الواسعة والجزيرة الصغيرة ، احببت اهلها الطيبين ، اولئك الفقراء الذين ينتظرون الغنى ، بعد ان طال بهم الانتظار ، واحببت الجواميس ، وصيد السمك بالحراب، وصيد البط بالبنادق ، وتعشقت جمع الاصداف الملونة والقواقع التي يزخر بها الشاطىء واستهوتني بيوت المركز بالوانها البيض ونوافذها المطلة على البحيرة ، وجمال الطبيعة الهادىء ذلك الذي يملأ النفس حبا وحنانا .

ولكن ابي اقنعني بالسفر والعودة الى المدرسة ، وبصري بعاقبة البقاء في هذه الجزيرة تلك التي سوف تجعل مني صيادا ابيع صيدي بقروش قليلة ، واشتري ثيابي وطعامي باسعار مرتفعة ، وافني حياتي في العمل القاسي ، وافقد املي من جراء صبر لا نهاية له ! !

واليوم ، وبعد عشرين سنة على هذه الرحلة لا تزال حوادثها ماثلة في عيني . ولا ازال احلم بالقوارب والمياه الزرقاء ، والنجوم اللامعة في العشية ، والحياة التي تجملها الطبيعة الساكنة ، والانسان الامين ولا ازال احس بان القارب الصغير يوشك ان يغرق ، وان ابي يحاول اسكاتي باي ثمن .. وان المجذف يبذل قصارى جهده كي ننجو من الغرق . حتى ان المرارة تعاودني كلما لقيت في حياتي بعض الصعوبات فاتمنى لو انني عصيت ابي وبقيت هناك في البحيرة وصرت صيادا ، بدلا من ان اكون اي انسان اخر في الوجود ! !

حلب — علي بدور
من الاصدقاء

أبي

ooo

في قرية صغيرة عاش أبي
وما يزال
ستون عاما في طريق الكد يمشي
ما يزال
الليل والنهار بعد الليل والنهار
للصيف في جبينه تلويحة الثمار
وللربيع في يديه فورة الحنان
ودفقة الندى
وبسمة الصباح في جبينه تلوح
وبحة الخريف .. بحة الخريف
تنام في مفرقه
تنام في امان

كنت صغيرا لم ازل اجوس في الزقاق
اطارد الفراش والذباب
افترش الحجار والتراب
انا واخوتي الصغار والرفاق
في قرية صغيرة ادركت الحياة
من الحقول للبيوت والبيوت للحقول
ومن مقاطع الحجارة الرهيبة ، الرهيبة
الى يد المحراث تمسح الفناء
عن وجه ارض قريتي الطيبة الخصيبة

« كان ابي »
هل تعرفون ؟ يا صغاري يا صغار
« كان ابي جبار
كان ابي عملاق يقطع الحجار
ينهض في الصباح قبل ان يفيق الفجر
ويحمل الابريق للصلاة
ثم يقول حين ينتهي دعاه
« احفظ وبارك يا الهي ولدي »
« فهو عمادي في غدي »
« وهو يدي »
فاحفظه يا الهي الرحيم من اذى الاشرار »

كان ابي انسان يعشق الحياة
يعتصر الحياة من صلاب الصخر
ينهض في الصباح قبل ان يفيق الفجر
ثم يولي وجهه شطر الشروق

كان يصحي الشمس من غلائل النعاس
وكل من لاقاه في الطريق
من الرجال والاطفال والنساء
يقول له :
ــ وبسمة السلام فوق ثغره الدقيق ــ
« صباح الخير يا اخي .. يوما سعيد »
وحينما يعود في المساء
تفوح من لباسه روائح التعب
روائح القار والتراب والعرق
ونكهة شهية شهيه
تفوح منها الكبرياء
ممزوجة في دمه وفي الوريد
ويجلس الصغار
حول ابي في نصف دائره
عيوننا معلقات في جبينه الارق
كنا ــ جميعا ــ لا نرى من الحياه
غير ابي والله

وكان في ليالي الشتاء الماطرة
حين نحيط بأبي
في شكل نصف دائرة
لنركب الحديث . والحديث كم يطول
ونقطع الوهاد والجبال والسهول
من الحجاز للعراق لحلب
نسير مع بني هلال
نطوي الفيافي الواسعات والرمال
حتى اذا ما نال منا السير والتعب
ربطنا في عمود الخيمة الخيول

في قرية صغيرة طيبة الهواء
عاش ابي
عاش عزيز النفس قانع النصيب
يجد طول يومه لا يعرف الكسل
يذوب الحياة كيما يكبر الصغار
حتى اذا اتى المساء
وزمجرت عواصف الشتاء
مضى وملء عينه ابتسامة الغد القريب

الاردن **توفيق صرداوي**

اندره جيد

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

ooo

لما بلغ اندره جيد سنته الثانية والسبعين عام ١٩٤١ كانت الكتب التي تحدثت عنه قاربت الثلاثين عدا (١) ، هذا عدا عن مائة وخمسين كتابا اخر اشتملت على مقالات مسهبة تناولت مؤلفاته، بالاضافة الى خمسمائة مقالة غيرها منشورة في مجلات مختلفة .

ولا شك في ان هذا الفيض من الادب الذي يعالج شخصية ان اعجابا او انتقادا، كان ولا يزال ذا طبيعة عاطفية، وهو يفصح دائما عن اهتمام شخصي عميق الغور ، بعيد الاثر . وربما استشرى هذا الفيض وتوسع مداه ، في العقد المنصرم ، و لاسيما حينما بلغ الثمانين ، والان ، وقد درج الى الفناء ، في الثانية والثمانين ، وهي السن التي انحدر فيها غوته الى الموت ، وغوته رجل محضه جيد ابلغ الحب ، واجله ابلغ الاجلال ، اقول ــ في هذا الوقت بالذات ــ علينا ان نبحث عن جيد لندرسه .

ومن الطبيعي ان تشغل فرنسا نفسها بمعظم البحث النقدي للتعرف بحياة جيد الجريئة المتشابكة ومؤلفاته المتحدية للتقاليد ، العنيفة ، في صولاتها وجولاتها . اما ما قدمته امريكا في هذا الشأن ــ مع علو كعبها في النقد الادبي ــ فضئيل القيمة بخس الثمن . وبقدر ما اعرف ، مع عدم استنادي كثيرا الى معرفتي ، لم يحدث شيء يمكن ان يعد اكتشافا خطيرا لظاهرة جيد العقلية ، في مجالات فن النقد ، منذ صدور السيرة الصارمة التي دبجها كلاوسمان ، اي منذ ما يقارب الثماني سنوات . واليوم جئت لاناقش كتاب (اندره جيد) بقلم البرت ج جيرارد (وهو على التأكيد سيكون ملاذ النقاد الامريكيين مدى ثماني سنوات قابلة) اذ انهم سيبقون طوال هذا الوقت مدينين له بهذا الموضوع ذي الاهمية الخاصة .

اما البرت جيرارد هذا ، فهو مساعد استاذ للغة الانكليزية في هارفارد ، وهو امريكي ينحدر من ارومة اوربية ، وهو رجل متضلع بالادب ، وله صلات وثيقة بالتيارات الفكرية الفرنسية ، علاوة على فهمه للكاتب الذي جعل من نفسه (راسمالا معاصرا) في غضون حياته التي عاشها بصراحته الوجدانية الزاهية ، في الوقت الذي يسعه افهام غيره موقف امريكا المتعالي بالنسبة الى الكاتب الذي يعنينا امره الان . اسمعه يتكلم على ذلك بقوله :

« نحن لا نتناول قاصا تقليديا في ايام الناس هذه .. اذ ان جيد ــ على الضد من هاردي وكونراد ــ كان اديبا واخلاقيا واضح المعالم ، بيّن الاتجاهات ، اكثر من كونه قاصا حسب .. ولكن القاص الامريكي (كما هو شأن القارىء) يشك شكا عميقا في مثل هذا الشمول ، وهذه العلاقة الحميمة ، ومثل هذا الادعاء العقلي . ذلك بان القاص لا بد له ان يكون صانعا محترفا ، خبيرا بسرد القصص ، بعيدا عن شخصيته في صورتها الانانية ... اما مفهوم الدور المثالي ، او التناقض المثالي ، فبعيد عن طريقة تفكيرنا، واسلوب ادراكنا للاشياء » . ومن هنا ، يبرز التباين الواضح بين الحياة العقلية الفرنسية او الاوربية بشكل أعم وبين الحياة العقلية الامريكية .

وكما ان جيد فريد في تصميمه ونتاجه ، كذلك كتاب جيرارد ، فهو محاولة منفردة لرفع مشاكل جيد الشكلية ، المعروفة ، من مستواها الاعتيادي الى مستواها العالمي ، والعكس بالعكس لا عند تفسير المشاكل العامة ، بتعابير جد شخصية . وهذا ، قبل كل شيء هو الذي جعل جيد يمثل نفسه خير تمثيل . ومع هذا ، فان جيد لم يكن ليصير الى ما صار عليه ، بغير موهبة فريدة ، ليس لها من شأن يذكر الا فيما له علاقة بالاوساط الفرنسية : وهذه تتجلى في قابليته للسيطرة على النثر سيطرة تامة ، بغير موهبة خاصة ، وبغير ان يكون له اسلوبه المعين ، ويتبين ذلك في قدرة هذا الكاتب على مقارعة ما يحيط به من مكروه ، وفي سيطرته على عناد اعدائه ومناوئيه .

يصف المستر جيرارد حياة المؤلف حين انقضت بتأثير معضلات مربكة ، ولكن المؤلف لا يقتصر على ذلك حسب ، بل انه يصور رجلا انتصر على الخطيئة والاثم ، والمرض العصبي من طريق نظامه الفني ، الذي اصبح بالقياس اليه اداة لضبط النفس ، كما غدت اللغة والاسلوب علاجين ناجعين للفوضى التي تهز دخيلة نفسه . وباسلوب مماثل تمكن الناقد الحصيف من التغلب على التناقضات المتمثلة في هذا الفنان المنبثق من هذه الفوضى ؛ وذلك يعود الى ذكائه الوضاء . وهو ما عرف به جيرارد وما طبقه خير تطبيق، ومارسه احسن ممارسة، واجاد فيه احسن اجادة. ولا ريب في ان مؤلف هذا الكتاب هو اديب ذو سطوة في مجالات الاساليب التي هو باشد الحاجة اليها ، ولا سيما في هذا الضرب من الجهاد الفكري . ذلك بانه رجل فرنسي متأمرك ، على اوسع ما يكون من الغنى في مفردات لغته الانكليزية الجديدة ، الممتازة بمرونتها وليونتها ، والمعروفة بانجازاتها الفكرية في حقول المباراة جميعا ، في الوقت الذي تكون فيه قادرة على تتبع الانعطافات المؤلمة التي لا بد منها للرضوخ للموضوع الرئيسي ، لانها منشأ العزيمة واداتها ، في تيسير الامور المعقدة ، وفي تحقيق النظام والتمكين له

(١) وهذا على حسب الفهرست الذي اصدرته دار تالفر وبليس للنشر .

من السيادة في ميدان الارتباك والاضطراب .

وهذا النتاج برمته يضمه مجلد يشمل اولا مقدمة مطيبة بنكات شخصية ، ثم خمسة فصول متشابهة في طولها تقريبا . واول هذه الفصول دراسة نفسانية تتناول « ازمة الفردية » في عصرنا ، والثاني يعالج « سيرة » جيد « الروحية » كملاحظات اندره ولتر ، وكتاب « ان ماتت » والثالث مخصص بالقصص المبكرة ، ولا سيما «اللااخلاقي» اما الرابع فحكايات تمس السنوات الاخيرة وبخاصة « المزيفون » . واما الفصل الختامي ، واعني به الخامس فهو يحمل عنوانا ساخرا « مفسد الشباب » وهذه اشارة الى محاكمة سقراط ، وهي اشارة مصيبة كل الاصابة . فكل خطوة من خطوات تأثير جيد « المفسد » تدعو الى نشر الفساد ، لانها تنسف التقاليد ، وتقلع الحالة الاجتماعية اخلاقيا . وهذا الامر يذكرنا بسقراط والحركة الراديكالية البروتستانية التي يمثلها جان جاك روسو . وهذه حركة انبعاثية جديدة تميزت اكبر الامتياز بروحها المناقضة للتقاليد القديمة .

ومن هنا ، كان يمكن نشر فصول هذا الكتاب بشكل كراسات ومقالات مستقلة ، مع ما فيها من تداخل وتشابك، فاذا كانت مقالاته « اذا ماتت » تضم موضوعات شتى ، فدوافعها النفسانية تبدو متماثلة المرة تلو المرة ، في متونها الجديدة وفيما ينثال عليها من اضواء جديدة ، وبذا ترتبط الفصول بعضها ببعض ، فتغدو وحدة غير مجزاة . اذ هي نتاج الحياة الذي تفسره ، وهي تبرهن ، كمثيلاتها ، على ان الشيء المهم ، ليس نتاج الكتاب بصورة منفردة ، ولو ان في هذا معنى الكمال والادعاء به ، بل الجدير — في كل ذلك — شمول هذا الكتاب ، في مجمله وانسجامه واتساقه . . .

وفي هذا الصدد يقول المستر جيرارد بكثير من الدقة والاصابة ما ياتي ذكره « ان الكتاب المنفرد قد ينقذنا او يفسدنا برسالة واحدة ، او قوة خاصة . الا ان سلسلة من الكتب هي التي تجهزنا بسمات موقف ما ، وتقدم لنا صورة كاملة عن عصرنا الحاضر . » وتقدير المستر جيرارد لجيد ، في اتساع افقه ، له شان واي شان . ولكن دراسته لشخصية المعنى به ليست من الثناء في باب من ابوابه ، فهو امريكي اصيل ، يكره اشد ما يكره كل تمجيد غير مشروط بشروط معينة . اما تحفظاته فتهتم بشيء اساسي ، واعني بهذا الشيء القوى الرائعة المبدعة المجردة التي يمتاز بها (بطله) ، هذه القوى التي يصفها بالتفاهة والتفكك ، ولكنه مع ذلك يعترف مرارا وتكرارا « بعدم نضج جيد في عمله القصصي » والسبب الرئيسي في ذلك كله هو نوع معين من الذاتية « التي تمعن في التأملات الخاصة بموهبتها وخيالها » وبسبب ذلك يصح لنا ان نعد الوهن مماثلا « للوهن المسيطر على ذهنة بالقياس على الاذهان التي تختلف عن ذهنه جذريا . ثم ان ثمة عجزا في موهبته للحفاظ على تجارب شبابه ، في حيويتها وطلاوتها وجدتها»

والواقع ان كثيرا من الكتاب المحدثين تمكنوا من السيطرة على حقول واسعة تنبض بالملاحم ، من اجل صياغة ابداعهم في صورة شاسعة الاطراف تضم الكون بين ارجائها ، لتجعل قاطنيه ، اوفر عددا ، واشد حيوية ومع ذلك فالمستر جيرارد على حق، كل الحق، حين يتحدث عن مؤلف « اللااخلاقي » و « المزيفون » و « اختلاس الفاتيكان » فيدعوه « واحدا من اعاظم القاصين في عصرنا هذا ، فهو الذي بدل افكارنا وانطباعاتنا عن العالم الحديث» ثم يؤيد هذا القول بـ « اللااخلاقي » وهذه قصة بعدها الناقد احسن قصص جيد واحدى الطرف النادرة في هذا الشان ، ثم انه يضع هذا النتاج المبكر ليس فوق (اختلاس الفاتيكان) المسلية الوقحة حسب بل فوق (المزيفون) ايضا

ولكن من الصعب على الاتفاق مع المستر جيرارد في حكمه ، ذلك الحكم الذي يناقض واقع (المزيفون) مناقضة فيها شيء من الفكاهة والتندر . فالقصة الاخيرة ، هي التي كرس لها المستر جيرارد شرحه المطنب ، في فصله الرابع ، وهو ذلك الفصل الذي دل على علو كعبه في فهم الادب ولوذعيته ان في النقد او في الشرح . اليست (اللااخلاقي) التي نشرت سنة ١٩٠٢ قصة تلاشت اصالتها وضؤلت هزتها خلال الاجيال ؟ اليس عنوانها من موحيات نيتشه التي ذهبت محتوياتها هباء منثورا بما اثير حولها من بحوث فلسفية ثقيلة الوطاة ؟ وبعد ، اليست (المزيفون) هي القصة التي لا تزال تلعب الدور الرئيسي في تاريخ القصة الاوروبية اكثر مما تفعله قصة (اللااخلاقي) ؟ ثم ان اسم اندره جيد القاص ، اليس هو بدوره على صلة وثقى بتجربة (المزيفون) وقد بلغ مؤلفها الستين يوم انتجها ؟ واليوم (كشباننا من مدة غير يسيرة) نحن بحاجة الى « الحس التاريخي الموغل في بعده عن المعرفة النفسانية ، بله الباثولوجيا الجنسية ، من اجل ادراك نتاج القاص المبكر .

والحق انه قبل ان تصل نتائج بحوث فرويد الى وعي الجمهور ، كانت قصة (اللااخلاقي) قد تكهنت برفع اللثام عن النزاع بين الحياتين الشعورية واللاشعورية . وهذه البصيرة انبثقت من ميول جيد الشاذة ، وقد ظلت كامنة غير مفهومة لمدة طويلة . وهذه الميول هي جذور اخلاقه الحركية (الدينامية) ومصادرها الرئيسة ، وهي كذلك بالقياس الى ثورته على كل شيء تقليدي ، ودعة اتباعية . وهي التي جعلت منه قوة محركة هازة ، في وسعها ان تخدم التقدم الانساني في المدى البعيد . وهذا ما حدا به على ان يكون قادرا على القول عن نفسه « ان دوري يتلخص في خلق الاضطراب والتشويش ». ثم ياتي جيرارد بالغوث ليخفف من حدة ازمة هذا الذهن الخصب ، وكل ذلك باسلوب معجب مثير . وهو لا يقتصر على ذلك بل يجعلنا نجرب هذه الازمة المنحدرة من البيوريتانية ، العارية الصريحة المتصلة بحفظ الذات ، في اندفاعها الطبيعي المنحرف عما يدعى (بالحالة الطبيعية) .

ولما كان جيد غير متمكن من الهيدونية اللامبالية (١) (وهي تلك الفكرة التي اقتفى آثارها ، من حين الى اخر ، وجعلها بارزة في قصة (ثمار الارض) ولما كان غير مستطيع التمسك بالبيوريتانية الطليقة ، اقول انه لما عجز عن احتذاء هذين السبيلين تارجح ذهنه متلاعبا بين مملكة النظام ، التي كان بحاجة يائسة اليها وبين الفوضى التي كان هو وريثها الشرعي . . . ذلك بان جيد لم يكن الرجل الذي يسعه قبول (الوسط الذهني) لان مثل هذا الاعتدال هو الذي مقته اشد المقت وناصبه اعنف العداء . ويمكن تحديد واجب جيد بنثر بذور التطرف ورعايتها والمحافظة على نمائها القلق ، وهذه الامور جميعا هي التي تكون عناصر رسالته في الحياة،

---

(١) هي فلسفة اللذة المطلقة ، والاباحية التامة ، المترجم .

واذا كان في قدرتنا ان نشير الى مثل اخلاقي في هذا كله، حتى اذا كان جيد نفسه راغبا في ذلك ـ فلا يمكن انيكون المثل الا هذا : كل مبدأ لا يعدل شيئا ، الا اذا صحح نقيضه واصلح فساده .

ومن الجدير بالملاحظة مراقبة العنصر الجمالي وكيفية هيمنته على حياة جيد ، التي اصبحت سنة سواء أكان ذلك برضى منه ام بغير رضى ، لان مثل هذه الحياة تتطلب الضبط الذاتي، والنظام الذي يخضع طبيعتها الفطرية له، وتلك التي تتخذها هذه الحياة من مجالات العيش لملاءمتها لها ، وهذا الامر يقتضي تضحية (الانا) ونبذ (الحرمة الذاتية) بمعنى ايجاد السلام في طريق الوجود الفريد ، لتحقيق الشخصية الكاملة الصريحة . ومن هنا نجد بعض الشعارات المحببة لدى جيد ومنها « من احب الحياة فقدها ، ومن مقتها ربحها دائما » و « البذرة المزروعة لا تموت ابدا » ومعلوم ان هذه الشعارات مستقاة جميعا من الكتاب المقدس

اما الحكمة القائلة « بان الفضيلة تتطلب التضحية بنفسها » فقد توصل اليها جيد مع انه لم يعرف نيتشه يومئذ ، وبذا استخرج نقيض الاخلاق من الاخلاق نفسها . وقبل ان يدرك هذه الظاهرة الثنائية المتوازية التي عرفها الفيلسوف الالماني اصر جيد على « انتهاك كل شيء عني به » ثم ان النظارة ساءلوا انفسهم حائرين مشدوهين . اذ كيف يمكن لاي انسان ان يظل متعلقا بغصن وهو يعمل فيه تشذيبا وقطعا ، وهذه كانت حال جيد ونيتشه . ولكنه عاش متأثرا بما وجده في حياته ، ولما كان فنانا فقد استطاع ان يجعل من هذا التناقض ابداعا وخلقا .

ومما لا شك فيه انه رفع من شان اللهو وهو ميل نحو الاستخفاف والاستهزاء وهذا حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم زوق هذا الضرب من الاخلاق باطار من السرية . وهنا يسعك ان تجد الحادا شيطانيا ، وتقلبا في المراوغة ، وخبثها المضل الضال . والحق ان هذه الشيطانية تتضمن اخلاصا رفيع الشأن ، وصراحة غير مقيدة بشروط او اصفاد ، ولكن هذا الخداع والغش كانا من القوة بحيث أبيا التقيد والتحديد ، وفي الختام ترى لدى الكاتب سرورا لمكايدة الناس الصالحين .

اما قلق تفكيره العقلي فهو يتفاوت التفاوت كله عن النسبية التي يمتاز بها الشكوكيون كرينان واناتول فرانس، لانها ـ في الواقع ـ بحث غير منته عن الحقيقة المجردة ، واستعداد لتحمل الالام بغية وحدة الحرية ، ومن تلك الالام ما هو من البطولة في ارقى مجال . ثم ظهرت امام هذه الروح العزيزة الشيوعية والكنيسة الكاثوليكية ، وقد لجأ اليهما الكثيرون من المعاصرين . الا ان جيد الذي تحتاج طبيعته الى الالتزام احتياجها الى الحرية ، فقد جرب الشيوعية مدة قصيرة ، بدافع روحه الثورية ، ثم ما لبث ان قال انها « لا تبرر نفسها الا بصورة نسبية » وغالبا ما لوح لصديقه بول كلوديل ، بانه ربما سيعود الى احضان الكاثوليكية . ومع ذلك ، وبالرغم من مسيحيته وتقاليده وثوريته ، استمر في تشبثه بمقته للكاثوليكية (العملية) الممثلة في الابرشيات الوطنية . ثم كتب « الولد المسرف » وهي تلك القصة التي ابعدته عن اعتناق الكاثوليكية ، وهذا ما يراه جيرارد كحقيقة واقعة . صحيح انه كان متدينا ، ولكنه وجد الكاثوليكية « غير مقبولة » والبروتستانتية « غير محتملة » ، ولقد عرف العسر في احتمال الحرية ، ولكن خوفه هذا بزه خوفه من المتع العقلية الخاضعة لسنن الجماعة ، وخشيته من تخفيف التوترات الحيوية ، والخضوع للسلطة . وكلما شعر باغواء الرضا ، تراجع سريعا الى بيداء فرديته المتكبرة .

وكأي انسان فريد النوع ، نظر الى ابي الهول في عينيه ، طالبا منه ان يحل لغزه ، ويميط اللثام عن سره . وهذا الامر يدعو الى العطف غير المحدود ، ولو انه بهذه الوسيلة يضيف ظلالا كثيرة الى شخصيته ، بالاستناد الى الخصال المنشودة الغريبة ، وهذه خصال معروفة لدى كل انسان واع يعرف نفسه حق المعرفة . ومع ذلك فهي توقظ مشاعر اخوية . ومن هنا يسعنا الالمام بعمله الموجه ، لانه اخذ ينحو منحى واقعيا ، في الوقت الذي خالف فيه الواقعية (المعروفة) كثيرا ، وهذا ما جعله مفعما بروح التجربة ، في حين انه حرك اوصال كلاسيكية جديدة ، ولو ان هذه الكلاسيكية ظلت على ارتفاع شاهق بالقياس على المحافظين موراس وبرنتيه، كما كان شأنه معهما في السياسة والاخلاق .

يتحدث المستر جيرارد عن (المزيفون) فيقول بانها اقل اصالة في التجربة من « بوليسيس » ومع ذلك فهي في الوقت نفسه ايسر واقعية منها . وبعبارة اخرى يدعو جيد « راديكاليا محافظا ، ومحافظا جريئا » وهذا المزيج هو ما جعلني اعترف له باحساسات اخوية عفوية .

اما فضول جيد المشهور فقد كان قويا أشد القوة في مملكة الادب والاخلاق ، وهو الذي عاد على فرنسا بفوائد جمة . وهذا الفضول نفسه هو الذي اعانه على اختراق الجدار الصيني الذي احاط بثقافة فرنسا ، المنفردة الثمينة حتى قبل امد قريب من الزمن . ولكن جيد اصر على ان التقاليد الكلاسيكية الفرنسية بحاجة الى تجديد وانتعاش ، قبل كل شيء ، ولن يتم ذلك الا بقوى شيطانية شديدة البأس مستمدة من الخارج . ولما كان مبشرا بمثل هذه الافكار فقد سمح بادخال تيار من الهواء الطلق على هذه القوى من كل حدب وصوب ، من جهة وعلى حظيرة الادب من جهة ثانية .

ولولا جيد لظل الفرنسيون ينظرون الى دوستويفسكي على انه عبقري ، غريب الاطوار ، لا يسبر غوره ، ولا ينحى منحاه .

واذا كان هنري جيمس قد بدا « عقلانيا » اكثر مما يجب و « فرنسيا » أفاد فرنسا اكبر الفائدة ، فشهرة كونراد اتسعت كثيرا بفضل ما ابداه جيد من تفهم له . ثم ان الولايات المتحدة مدينة له لجهوده التي بذلها في تعريف الجمهور الفرنسي على وتمان وميلفل . والواقع اذا كان هذا الجمهور اليوم على علم باسماء فوكنر وهمنغواي وشتاينبيك وكالدويل ، فالجزء الاعظم من هذا التعريف يعود حتما الى فضول جيد وقدرته الغريبة على حب الاستطلاع .

غير ان اسم جيد وسمعته وتأثيره لم تنتشر انتشارا واسع المدى في الولايات المتحدة ، فجاء المستر جيرارد محاولا تغيير هذه الحال ، وهذا هو السبب الرئيس الذي دفع به الى تدبيج كتابه هذا . ذلك بانه يعتقد بان مفسدا من هذا الطراز ، وعقلية مدمرة من هذا الضرب ، لا بد لها

خصر

○ ○ ○

أي خصر كالمرايا مستهام … مرمري اللون مصقول الرخام
ناعم من صنع احلام الصبا … نفحه طيب ودنياه غرام
هوم السحر على اندائه … واستحم العطر فيه والهيام
يتثنى كلما مرت به … نسمات الحب يقرئن السلام
واذا ما عبثت كفي به … صاح لا تقسو على المضنى حرام
أنا من عذبه فرط الجوى … فبأحشائي من الشكوى سقام
ضامر خصري وأما مهجتي … فضرام يملأ الدنيا ضرام
غصن رند اينعت اعطافه … فغفا الرمان في صدري ونام

* * *

بأبي خصرك لا يستره … غير ظل من وشاحات الغمام
فانزعي (النيلون) عنه طالما … حز في انفسنا ذاك اللثام
واتركيه يتهادى طربا … ودعي اللاحي وان قال ولام
نشوة الندمان من خمرتهم … ولنا من نشوة السحر مدام
اذ تغنىّ القوم في وجه بدا … فجمال الغيد في عيني قوام

حمص

عبدو مسوح

ان تقتل المفاهيم القبلية بحثا واستقصاء ، ومن هنا يكون نفع مثل هذه القدرة عاما في هذه البلاد . « لما فيها من آثار متبقية من البيوريتانية ذات التفكير الذي يعتمد على الاشارات والشعارات » وليس هذا فقط ، بل هو يعلن « بانه من العسير المغالاة بفوائد جيد الامريكي »

وبعد فان احدنا لن يستطيع التأثر بعبارات المؤلف الختامية ، التي يتحدث فيها عن « القرارات العاجلة ، والروايات المناسبة ووضع الدوافع وضعا عقليا صالحا ، للصمود امام الزمن،بالاضافة الىخرافة التنويم الاجماعية» فهذه الاشياء فرضت فرضا على هذا البلد بضغط من الحوادث ، وبتأثير التربية والسلطة في غضون سنوات قلائل .

يقول الكاتب فى هذا الشان « لقد اصبحنا ذرائعيين على نطاق مرعب . ونحن الان اقرب شيء الى عالم جورج اورويل (١٩٨٤) ونحن في ذلك اقرب مما يظنه معظم الناس ، حيث سيغدو وضعنا اسوأ مما نحن فيه بكثير » . اما حقيقة الذرائعي (التي مقتها جيد اعنف المقت) فقد اصبحت تبدو صادقة اكثر من الواقع . ثم ان ميكانيكية الدعاية اخذت باسباب القوة والسيطرة بسرعة تواكبها في ذلك طاقاتنا لخداع انفسنا وتمجيدها ، بحيث يعز علينا ان نتنكر لها . ومن الصعوبة بمكان ان نرى ما سيفعله الشباب من اجل التفكير المصيب ، في السنوات التي ستواجهنا ، عوضا عن التفكير النفعي او الوطني .

العراق ــ بعقوبة

يوسف عبد المسيح ثروة

الى صديقة

ooo

اتركيني..
ابعدي عني كأن لم تعرفيني
وانكري ما قلتِ لي بالامس ..
حتى وانكريني
وادعي أني كالمجنون ..
لا اعرف شكي من يقيني
وافعلي ما شئتِ ..
حتى والعنيني
واهجريني
انتِ ما عدت سوى اوهام
تجتاح ظنوني
انت ما عدت سوى اصداء
في جوف السنينِ
بعد أن أظهرتِ لي ماذا تكوني
بعد ان سجلتِ هذا السخف ...
يوما في يقيني

* * *

ابعدي عني ...
وغيبي من سمائي
انت ما عدت لعيني ضيائي
أنت قد اطفئتِ لما ...
جئتِ تبغين انطفائي
عندما قاومت يوما
كبريائي
عندما حاولت أن اتيك ...
مجروح الاباء
ودموعي في عيوني
فابعدي ...
لا تقربيني
انا لن اطعم قلبي ...
من جفوني

* * *

كنت في ماضيّ اهواكِ
ملاكا بشريا
كنت اهوى حسنك الهادىء
يسترخي عليا
غير اني اليوم ...
لا اشعر شيئًا
غير اني اليوم ...
حطمت الهوى بين يديًا
قد تحررت من الاوهام
والسخف المشينِ
عندما حاولتِ
الا تقربيني
فاتركيني
وابعدي عني ...
كأن لم تعرفيني
وارحمي نفسك مني
وارحميني

الجامعة الامريكية بيروت
عصمت حمارنه



في القومية والانسانية

للدكتور كمال يوسف الحاج استاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية — ١٤٤ صفحة — منشورات عويدات ببيروت — مطبعة قلفاط بيروت

●

حديث القومية هو الطاغي اليوم على جميع الاحاديث في الصحف ، في الاندية ، في الاذاعات ، في التعليقات ، ويواكبه في هذا الطغيان والاستئثار باهتمام الناس ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، ميل الى الاستقصاء الفكري ، والتعمق في البحث ، والشمول في النظر ، اي الى الطريقة الفلسفية ، بتعبير اخر .

وكان الباحثون في القومية يواجهونها ، في الاعم الاغلب ، من زاوية الحماسة الخاصة ، او الامجاد التاريخية ، او التطلعات الذاتية ، ويدورون من شؤونها وقضاياها في اطارات محددة ، ضاربين صفحا عن الافق الاشمل ، والفضاء الاوسع .

قلت : في الاعم الاغلب ، محاولا ان استثني بذلك بعض الدارسين والمؤلفين الذين ابوا ان يسايروا الجماهير في اندفاعها الحماسي ، واكتفوا هادئين ، بما يقدم لهم الواقع من معطيات ، وسلكوا واثقين ، سبل العلم نحو كشف الحقائق والافادة من معطياته العامة .

غير ان هنالك طريقا وسطا بين حرارة التحمس القومي ، وبرودة العلم الموضوعي ، هي بالضبط ما يتبعه الفلاسفة في تأملاتهم ، ويتهدون الى تحقيقه في اعمالهم .

هذه الطريقة في بحث القومية هي التي لم تجد من يسلكها ، في بلادنا العربية ، وظلت تنتظر من يمثلها ، الى ان جاء الدكتور كمال يوسف الحاج ، وطلع على الدنيا العربية ، بكتابه هذا « في القومية والانسانية »

يقول الدكتور في مقدمة دراسته : « ... ولكنني لست بالمؤرخ ، ولست بالسياسي ، ولا بالاقتصادي ، ولا بالعالم الاجتماعي ، لابحث فيهما (القومية والانسانية) من جهة تلك المعارف الانسانية ، الواحدة تلو الاخرى . لقد نذرت نفسي للفلسفة ، واريد ان اطل عليهما من مقصورتها، معترفا رغم هذا بان جميع المقصورات الفكرية تتلاقى في النهاية عند حقيقة واحدة » .

نحن اذن امام « جديد عربي » من هذا الكتاب . والجدة فيه ان امرأ نذر نفسه للفلسفة ، يستهويه حديث القومية ، وياخذ في الخوض به ، كما استهوى من قبل رجال السياسة ، وزعماء الاحزاب وافراد الشعب

والشائع في بلادنا ان الفلسفة ليست مما يعنى بهذه الامور ، وان الفيلسوف مخلوق اخر ، يتفرد عن سائر المخلوقات البشرية باعتزاله وتنسكه وطول لحيته وغرابة شخصيته وشذوذ تصرفاته وانعتاقه اخيرا ، من القيود الاجتماعية ، واغلال العرف ومواضعات الناس فيما بينهم .

تلك هي الصورة القائمة في اذهان السواد ، عن الفلسفة والفيلسوف، في مجمل اقطارنا وبيئاتنا العربية .

ولكن الدكتور الحاج بدأ ، قبل هذا الكتاب ، ينسف تلك الصورة نسفا ، وهو الان ، بسبيل محوها من اذهان العرب ، فيما يكتب ويؤلف .

انه « لا يعتقد ان ثمة معرفة تعين الانسان على دك حصون الجهل ، كما تفعل الفلسفة ، ذلك لانها لا تكتفي بالجزئي فقط ، هي تحوش المطلق من كل جهاته ، وبهذا تبقى ، رغم كل هجوم يشنه عليها الكافرون بها ، المعرفة التي تضرب فنارها الى اقاصي البعيد ، فتعود بالمعرفة الكبيرة . عظمتها انها تزود الانسان رؤية شاملة في الوجود . »

هذا رجل يؤمن الفلسفة — كما ترى — ايمانا حارا ، قويا ، متحركا ، ويتحدث في الوقت نفسه ، عن القومية ، وتذهب حماسته الفلسفية الى حد القول : « ان تهافتنا القومي وليد غياب الفلسفة عندنا . تهافتنا اننا لا نتفلسف ... لا نشمل ... لا نطل من الاعالي الشاهقة على حضيض الواقع . تهافتنا في اتحاداتنا الوطنية ، اننا لا نطربش اعمالنا بادراكات فلسفية ، ولهذا نحن في المؤخرة ... »

هنا ... علي ان اهدي روع الدكتور الحاج ، ان اخفف من غلوائه فالفلسفة ما كانت يوما من الايام ، في حضارة من الحضارات ، « اساسا » وانما كانت تنشأ وتشمخ « تعبيرا » عن حضارة قائمة ، فهي في التحليل الاخير ، مظهر من مظاهر المدنية المتعددة ، المتداخلة ، المتشابكة لدى شعب من الشعوب في عصر من العصور ، شأنها في ذلك شان الادب ، والعلم ، والفن ، وطراز المعيشة ، ووسائل اللهو والتسلية .

واذا كان ثمة « تهافت » في البلاد العربية ، فذلك لا يرجع الى اننا « لا نتفلسف » وانما نحن لا نتفلسف لان ثمة تهافتا اجتماعيا ، في الدرجة الاولى . وشأننا في الفلسفة ، هو هو شأننا مع العلم ، والفن ، والادب ، والتاريخ ، والسياسة : الامية لا تزال منتشرة ، والفنون ما تزال بدائية ، والاداب لا تحظى بشيء من عناية الجماهير ، والتاريخ يزال لدينا مغمورا ، وما يعرفه الناس منه ، عبارة عن حوادث مفككة وصور باهتة وحكايات نابية ، والسياسة لا تزال مجموعة حيل لاكتساب الجمهور وخداعه وتضليله ! !

هذه الاوضاع هي التي تمنع الفلسفة من الازدهار في ربوعنا العربية ، وزوالها يفضي حتما الى نشوء مدارس وكتب وابحاث ودراسات فلسفية !

اعود بعد هذه التهدئة لروع الدكتور الحاج الى احاديثه الفلسفية في القومية والانسانية ، حيث نقع على طرائف ممتعة ، وافكار قيمة .

واول ما يلفت النظر اهتمامه بتركيز معاني الكلمات ودلالاتها ، مما يشير الى اصالة في اتجاهه الفلسفي ، اذ ان ابرز ما يتميز به الفيلسوف الصحيح ، التشدد في اعطاء كل كلمة معناها ، وبهذه الروح ، نرى المؤلف يفصل بين اعلومتين : « الانسان الاجتماعي » و « الانسان المجتمعي » . فالوصف الاول نعت لمزاج ، والثاني صفة شاملة ، لاصقة بكل انسان ، سواء كان اجتماعيا ام انطوائيا منعزلا .

ثم ينتقل من تقرير هذه الناحية الشاملة في كيان الانسان التي يسميها « المجتمعية » الى القول بجبرية القومية ، ويؤكد ان « الانسان المثالي اللاقومي ، المجمد في اللازمان واللامكان ، غير كائن حقا . »

ولقد عجبت من التقائي مع الدكتور كمال الحاج في هذه النظرة ، فقد سبق لي ان كتبت في « روح العروبة » قبل عشرة اعوام ، حول قومية الاخلاق ، وفصلها عن الحس الانساني ، ما يلي « ... واذا ضربنا مثلا لهذا الحس في رجل يحسب نفسه « انسانيا » بمعنى انه لا يدين بدين ، ولا يفضل قوما على اخرين ، ولا يلتزم في اعماله نظاما اخلاقيا خاصا بامة او بشريعة ، ذاهبا في اقصى عقيدته الى وضع انساني شامل تندرج فيه خصائص كل عالم ، وكل جيل ، وعمدنا الى تحليل نفسيته ، نجد ان هذا « الانساني » مشوش الدخلة ، مضطرب الذهنية ، فهو لن يحس ذلك الاحساس الا حين يكون والده والد الناس اجمعين ، وامه ام

الناس اجمعين ، وهو لن يشعر ذلك الشعور بصدق وعمق الا حين يكون ناشئا في بيت الانسانية كلها ، متربيا تربية شارفت جميع المناخات والبيئات ، وعملت على تكوينها جميع التقاليد والعادات ، وعبرت بجميع اللغات ! وذلك مما لا حاجة الى تفنيد امكانه ، بله استحالة حدوثه او تصوره » .

ويروي المؤلف ان « معضلة اللغة » هي التي كشفت له النقاب عن حقيقة القومية ، « وهي التي حدتني ، بعد تجربة قاسية عنيفة ، على الايمان بواقع القومية . لا انسانية الا في بدء من القومية ... »

هذا مما جعله يرى في اللغة تاريخ القوم عينه ، في بناء القومية ، بعد ان يرد عناصرها الى اربعة : الارض ، الاقتصاد ، التاريخ ، واللغة . و « جميع هذه العناصر متعادلة في العظمة والكرامة ، لانها تنبثق من صلب الحياة ... »

كل هذه التقريرات وما اتبعها المؤلف بشروح تفصيلية ، صحيحة لا يرقى الى صحتها شك ، وبها يتأكد القارىء ان لا فرق بين العلم والفلسفة ، في نهاية المطاف ، حين يبحث كل منهما على طريقته الخاصة حقيقة القومية ، ويسعى اليها .

ولكن الامر يختلف حين ينتقل المؤلف الى موضوع الانسانية . حيث يجد القارىء ان ايغال الدكتور في مجاهل « التعميم » ابعده عن الواقع في التقاط الادلة وكشف الخفايا ، وايضاح الغوامض . فهو اذ يسعى الى البرهنة على وجود « حقيقة انسانية واحدة » شاملة ، وعلى ان القومية لا تصح ان تكون غاية وان « وراء القومية العابرة انسانية باقية » يغفل الجانب الاكثر « فلسفية » ، والاعسر التقاطا على الاذهان ، ونعني به العلاقة كعلاقة ، ان بين الحواس والعقل ، وان بين الاشياء ، وان بين الناس .

هذا الاغفال لدرس العلاقات بين مختلف الموجودات في تقرير الحقيقة الانسانية ساقه الى اغفال الجانب السياسي ، في بحثه ، وجره الى تبرير الحروب على صعيد فلسفي ، دون ان يشعر بالنتيجة الخطيرة التي انتهى اليها !

تأمل كيف انتهى الى ذلك : « اولا هذا الاحساس (الاحساس بان وراء العرض جوهرا ثابتا) لدى كل منا ، في قرارة ذاته ما كانت الحروب التي هي دليل ساطع الى ان جوهرا ادميا واحدا ، هو الذي يجب ان يكون حقا . والجوهر لا يكون ممكنا او غير ممكن . الجوهر واجب . هو يفرض نفسه فرضا . هو لازم لازب . لهذا تتناحر الشعوب . الشعوب لا تتطاحن في سبيل ما يمكن ان يكون . انها تتحارب في سبيل ما يجب ان يكون . هي تموت من اجل عقيدة ، والعقيدة ذات طابع الزامي ، قهري، لانها تحمل فيها دائما صيغة المطلق . »

اكبر الظن ان تأثر الدكتور كمال الحاج بهنري برغسون ، هو المسؤول عن وقوعه في مثل هذا الخطا ، فالحروب التي وقعت وتقع بين الشعوب لا ترجع الى « سبب مطلق » ، عام ، يصح فيه التجريد والتعميم بل يجب اخذ كل حرب على حدة ، ودرسها في ضوء العلاقات الانسانية ، كما يجب في الوقت نفسه اخذ كل شعب على حدة ، وفصله بالذهن عن المجموعة البشرية ، ليتاح لنا فهم سلوكه .

اما اذا نحن مضينا في التعميم ، على نحو ما فعل الدكتور الحاج، لم نجد فارقا بين الانسان كنوع ، والحيوان كنوع .

واذا كانت « الشعوب تتحارب في سبيل ما يجب ان يكون » اطلاقا، فكيف نفسر الحروب القائمة بين انواع الحيوان ، بين النحال والدبابير ، بين الذئاب والنعاج ، بين النسور والطيور ، بين السمرمر والجراد ؟

اترى ان هذه الحيوانات تتطاحن في سبيل ما يجب ان يكون ايضا؟! ام يموت منها من يموت ، في سبيل عقيدة ايضا ؟!

لو كان للمؤلف ان يفكر ـ وهو يدرس موضوع الانسانية ـ بما سمي « العلاقة المنطقية » لادرك على الفور ، ان العلاقة لا يمكن التقاطها بوساطة الحواس ، وان العقل وحده هو الذي يمسك بها ، فمن الممكن ان ندرك بالبصر ما هو اسود ، ولكن ما ليس ابيض ، لا يتاح ادراكه الا بالعقل ، والعقل الانساني وحده .

والعلاقات بين الشعوب ـ هذه القضية التي اهملها الدكتور الحاج ـ لا يدركها الاحساس ، كما يدرك جوهرا وراء العرض . والحروب لا تبررها العقائد ، حين تكون هذه العقائد مرتكزة الى احاسيس وعواطف ومصالح ... امر الحروب اعقد مما يراه المؤلف ، وهو قضية « علاقة » لا قضية احساس .

ونعود الى فكرة « العقيدة » التي يمجدها الدكتور تمجيدا لا مزيد عليه : « ما قامت ثورة بناءة في شعب ، الا على اساس عقيدة . ما قام اصلاح مجد ، ولا فوز كبير ، الا على اساس الايمان بفكرة كبيرة ، تكون بمثابة الله .»

هذا التمجيد للعقيدة اطلاقا ادى بالمؤلف الى عدم التفريق بين ايمان وايمان ، بين فكرة وفكرة ، بين مسلك ومسلك ، ومرد هذا الوضع في ذهنه الى انه يمجد الفلسفة ، وياخذ بنظريات افلاطون الاولى ـ لان هناك تعديلات ثانية ، ادخلها افلاطون بعد نضجه على ارائه ـ في طريقة الحكم، وادارة الجمهور .

والى جانب هذاك التمجيد للايمان ، للعقيدة ، نجد المؤلف في اخر بحثه لموضوع الانسانية ، يتحدث عن الحرية قائلا : « الحرية هي القيمة التي لا قيمة خلفها اطلاقا . هي العمل المقيم الاكبر . لا قبل ياتي قبلها . ولا بعد ياتي بعدها . مثلها مثل الانسانية التي تبتدىء بذاتها ، وتنتهي بذاتها ، بل هي الانسانية عينها . لولاها ما كانت رحمة ، ولا عدالة ، ولا شفقة ، ولا محبة . هذه المفاهيم الاخلاقية تستمد قيمتها من كونها تحمل فيها معنى انسانيا عاما ، اي تحمل فيها معنى الحرية . »

واني لاعجب ان يصف مفكر مثل الدكتور الحاج ، بعض الكلمات ، في صف واحد ، دون التفات منه الى محتواها ، كان يحسب الرحمة والشفقة مفهومين اخلاقيين ويضعهما على قدم المساواة مع العدالة .

وينتقل المؤلف من تفصيل الانسانية وعرض افكاره حولها ، الى الانسانية اللاقومية ومن هذه الى القومية اللاانسانية ، ثم من هذه الى الاشتراكية الاممية ، ويختتم ابحاثه في هذه الموضوعات بتلخيص فكري ، يعطي به زبدة تفكيره العام ، الذي تتوجه هذه الفكرة « الحياد دليل اللاعقيدة في الانسان . دليل غياب مجتمعي في حياة الفرد . دليل ميوعة انخذالية ، وانانية غاشمة . الحياد هو الذي لا شخصية له . للذي لا ناقة له ولا جمل . وهذا لا يشرف الانسان العاقل . ما ولدنا عبثا ، لنعيش حياديين ، ونموت حياديين ... »

لي اعتراض ينتظم هذه الفصول وفروعها من اولها الى اخرها ، وهو ان المؤلف يطلق احكامه المجردة ، في فضاء التجريد ، دون لحاظ منه للدوافع الانسانية ولا للعوامل المنطقية المعقولة التي توجه فكرا نحو مسلك ، او انسانا في سبيل . فاللاقوميون مثلا اعداء الانسانية ، واللاانسانيون اعداء القومية ، والحياديون هم المتخاذلون !

يلقي هذه الاحكام ، ولا يقدم لنا مثلا واحدا حيا على انسان لا قومي، او على قومي لا انساني ، او على حيادي ، ويظل من جراء تجريده مغلفا بضباب من الكلمات ، والالفاظ ، والافتراضات والحماسات الخطابية التي لا يقبض منها القارىء على واقع .

الحياد مثلا بين عدوين لا يدل ابدا ، ولا بحال من الاحوال ، على « اللاعقيدة » . وانما هو موقف اخلاقي ، يشير الى عقيدة ثالثة تأبى الانسجام مع الطرفين المتعادين ، في ناحية او عدة نواح ، وتملي على صاحبها مسلكا خاصا ينبثق عن «اهتمامه» بشؤون يراها افضل من تلك التي يتخاصم عليها العدوان .. وهكذا ، نجد في اخر درسنا لهذا الكتاب ان موضوعه ليس من اختصاص الفلسفة ، والفلسفة وحدها . لا بد لمن يعالجه ان يكون ملما الماما واسعا بالتاريخ ، والسياسة ، وسائر العلوم

الاجتماعية بشكل خاص ، فلا يطلق حكما ،لا ويقدم الامثلة والشواهد عليه.

غير ان المؤلف اشار في اخر صفحة من كتابه ، الى ان بحثه دار في المطلق ، وانه ينوي التحدث في اسفار مقبلة عن قوميات ثلاث : اللبنانية والسورية والعربية ، وسيضع كلا منها على المحك ، ويشحذها وفق الاطار الفلسفي الذي رسمه .

هذا الاطار في خطوطه العلمية التي تحدثنا عنها اول الامر ، بـــدا صحيحا ، ولكنه مضطرب في تناول الحقائق السياسية ، نتيجة اغفاله للعلاقات الانسانية .

ولنا امل وطيد في ان يتلافى الدكتور هذا الجانب النظري الذي اغفله ، حين يعرض للتطبيق في ابحاثه المقبلة .

ولا بد من الاشارة ، في ختام هذه الملاحظات والانطباعات ، الــى جمال الاخراج الذي يتميز به الكتاب ، الى خلوه من الاغلاط المطبعية واتقان طبعه ، مما يؤكد ان ناشره بذل جهودا تستحق التقدير والثناء .

عبـد اللطيـف شـرارة

كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والفقه

النزاع حول التصوير في الاسلام ــ للدكتور بشر فارس ــ مستخرج من الجزء الثاني من كتاب « ملانج لويس ماسنيون (1) » ٣٣ صفحة نص فرنسي ــ ٩ صفحات نص عربي ــ ٨ لوحات ــ منشورات المعهد الفرنسي بدمشق ــ المطبعة الكاثوليكية ببيروت

●

لا يزال الدكتور بشر فارس مكبا على دراسة التصاوير التي زين بها الخطاطون الاقدمون الكتب العربية التي كانــوا ينسخونها ، باحثا عنها في مظالها محاولا ان يستخلص منها المذهب الفني الذي كان شائعا ايامئذ في رسمها والاساليب التي كانت متبعة لبلوغ الاغراض التي يستهدفونها منها .

والدكتور بشر فارس الي تضلعه في علوم اللغة وتمرسه من الادب قديمه وحديثه ــ بل ما هو ابعد من حديثه ، اذا صح هذا التعبير ــ من النقاد الفنيين المعترف لهم بالتقدم عندنا وعند الافرنج . فهو عضو فــي الجمعية الدولية لنقاد الفن ورئيس الشعبة المصرية الملتحقة بهذه الجمعية

وقد شاء ان يستخدم هذه المعرفة في شئون الفنون الرفيعـــة . ونخص فن الرسم منها هنا . ووقوفه على تاريخ تطوره ومختلف المذاهب التي نشات فيه والمدارس التي سيطرت على انتاجـــه ــ انه شاء ان يستخدم تلك المعارف في خدمة الفن الاسلامي فيستخرج التصاوير العربية من مكانها وينشرها بيننا مع جميع الظروف التي احاطت برسمها مستعينا على ذلك باطلاعاته الواسعة في الادب وتاريخه والفن بمسائله . ثم لايكتفي الدكتور بشر فارس بما ينشره من التصاوير وما يعلق عليها . بل نجـده يبحث فيما كتبه الفقهاء والعلماء على تحريم التصوير وتحليله فينشـره استزادة للفائدة وتعميما للمعرفة .

ولعل من الخير ان نشير الى ان الدكتور بشر فارس قد تفرد بـين الادباء ، ولعله من الافراد القلائل منهم ، الذين قاموا ويقومون بهذا العمل النافع المثمر في خدمة الثقافة الفنية . فيصرف الوقت الطويل في دور الكتب ويتجشم متاعب اسفار جمة لتاديته على احسن وجه في حـين انصرف العدد الكبير من ادبائنا الى نصوص الكتب ينشرونهـــا ويعلقون عليها آخذين بما فيها من ادب مستهينين بما فيها من اثر فني .

ولعل هذه الظاهرة بين ادبائنا اللامعين كانت سببا في ظاهرة اخرى نلحظها على ما يكتبه بشر فارس في هذا الصدد وقد اشار اليها بنفسه . وهي انه يكتبها باللغة الفرنسية وعذره في ذلك « ان البحث المتوغـــل في مسالة من مسائل الفن الاسلامي لا يحظى عند جماعتنا حظوته عنـــد الافرنج مستشرقين كانوا او مستطرفين » ولكن الدكتور بشر فارس يحرص دائما على ان يردف المباحث التي ينشرها بالفرنسية بموجز باللغة العربية يمكن القارىء العربي من معرفة فحوى الرسالة .

وهكذا فعل في بحثه الجديد . « كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والفقه » الذي نحن بصدده . وقد اتم تاليفه في سنة ١٩٥٥ .

من الشائع المعروف ان الخطاطين العرب كانوا يزينون الكتب الادبية التي ينسخونها ، امثال « كليلة ودمنة » و « المقامات الحريرية » و«كتاب الاغاني » برسوم وتصاوير لبعض القصص او المشاهد التي تتضمنها هذه الكتب . كما اخذوا يزينون كتب العلوم مثل الطب والنبات والبيطـــرة والفلك وصناعة الحيل او كتب عجائب المخلوقات بتصاوير ومنمنمات لبعض ما حوته هذه الكتب . ونعرف ان بشر فارس اكتشف في احدى النسخ المخطوطة لكتاب « الاغاني » بدار الكتب بالقاهرة منمنمة(1) تمثل ما يعرف في اصول الاسلام باسم « المتحنة » حين قصد اسقف نجران الى الرسول العربي ، مما رواه الاصفهاني في « الاغاني » وموضوعهـــا الاية (٥٩ وما يليها من سورة آل عمران) .

ولكننا لم تكن نعرف ان الخطاطين كانوا يعنون ايضا بتزويق كتـب الفقه بالمنمنمات

وهذا وجه الطرافة في بحث الدكتور بشر فارس

فقد نشر في رسالته « كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والفقه » صورتين متقابلتين وجدهما سنة ١٩٥٤ في غرة نسخة من « رسائــــل اخوان الصفا » موجودة في خزانة السليمانية باسطنبول . ولسنا بحاجة الى التعريف بهذه الرسائل الخمسين ولا باصحابها اولئك العلماءالخمسة الذين كانوا يعقدون مجالسهم في البصرة في اواسط القرن العاشر المسيحي ، والذين طافوا بجميع علوم عصرهم وفنونه على الطريقة المعروفة في عهدهم وبحثوها في رسائلهم . وكانوا اقرب الى فلسفة افلاطـــون وفيثاغوروس منهم الى ارسطو كما كانوا الى مذاهب المعتزلة الاسماعيلية اقرب منهم الى السنة . لذلك حرصوا في حياتهم على كتم اسمائهم ولم يعرفوا الا بعد وفاتهم .

وكان هؤلاء الخمسة يعقدون المجالس . ولعلها كانـــت سرية لان المبادىء التي يعملون على نشرها كانت تمزج بين الفقه والفلسفة كما كانوا يتهمون في عصرهم وكما يظهر من رسائلهم . وهم الذين اوصوا مريديهم

---

(1) Philosophie et Jurisprudence Illustrées par les Arabes — La Querelle des Images en Islam — par Dr. Bishr Farès — Extrait des Mélanges Louis Massignon — 33 pages — Suit un résumé en langue arabe par l'auteur de 9 pages — avec 8 pls. — Editions de l'Institut Français de Damas — Imprimerie Catholique à Beyrouth.

(1) المنمنمة: الصورةالدقيقة فيكتاب MINIATURE وهيمن المصطلحات التي ابتكرها بشر فارس في باب الفن .

او (اخوانهم) ان يكون لهم حيث كانوا في البلاد مجلس خاص يجتمعون فيه في اوقات معلومة « لا يداخلهم فيه غيرهم يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه اسرارهم » .

فالصورتان اللتان نشرهما الدكتور بشر فارس تمثلان « اخوان الصفا » الخمسة في تلك المجالس . يظهر الاخوان في احداهما منصرفين الى المطالعة والتامل وقد وقف الخادمان في صمت واحترام . ويظهرون في الثانية وقد انصرف اثنان منهم الى المطالعة والتامل في حين حمي وطيس الجدل بين الثلاثة الاخرين حتى انطلق احد الخدم يروح بمروحة في يده ليخفف من حرارة الجو .

وعند الدكتور بشر فارس ان هاتين المنمنمتين يرجع اسلوبهما الى طريقة مدرسة بغداد ، والفنان الذي رسمهما من مريدي هذه المدرسة ، ويستشهد على ذلك بالشبه الكبير بين المنمنمتين وبين المنمنمات التي تزين نسخة لمقامات الحريري ، وهي من ضنائن دار الكتب بباريس . لانهما مثلها في هدوء الالوان وبراعة التشكيل واقامة التوازن وابراز الشعور الحي . مما يبث في مجموع اللوح حركة صادقة مستملحة .

هناك منمنمتان اخريان وجدهما الدكتور بشر فارس في احدى المكتبات الخاصة بفرنسا تزينان صدر نسخة من كتاب مفقود لم يبق منه غير هذه الصفحة الاولى . اما الكتاب فهو « قواعد الاحكام في معرفة الحلال والحرام » تصنيف جمال الدين الحسين بن المطهر الحلي من رجال القرن الرابع عشر المسيحي . احداهما تمثل المؤلف بين اربعة من مريديه وبينهم الكتاب المذكور واضح العنوان موضوع على ما نسميه الان بكرسي المصحف ، في حين تمثل المنمنمة التي بظهر الصورة دائرة تحوي « فهرس القواعد » .

وكان الحلي المعتزلي « عالم الشيعة وفقيههم » في عصره . وكان « اماما في علم الكلام » كما وصفه ابن تغري بردى في كتابه المخطوط « المنهل الصافي » واشتغل في العلوم العقلية فمهر فيها وصنف في الاصول والحكمة وفي فقه الامامية واشتهرت تصانيفه وتخرج به جماعة وكانت له مناظرات مع علماء عصره وفقهائهم .

ونضطر ان نمر مسرعين بصورة اخرى تمثل ديسقوريدس صاحب كتاب « الحشائش » والتي يرجع عهدها الى بدء المئة السادسة . ولعل هذا الكتاب هو الذي نقل الى العرب سنة تصوير المؤلف في فاتحة كتابه. والظاهر ان هذه السنة كانت شائعة عند اليونان ثم نقلها العرب فيما نقلوه منهم ، حسبما يقرر بشر فارس .

ومهما يكن من امر فاننا نستطيع ان نلاحظ من مجموعة المنمنمات التي نشرها الدكتور بشر فارس مع دراسة موغلة وافية تدل على انها جميعا ترجع الى مدرسة بغداد من حيث الالوان والحركة او الهدوء ثم الجو . ان هذه المنمنمات تدل على ان الخطاطين العرب دابوا على تصوير المؤلف في اول الكتاب ، لا تصوير مشاهده ، بل هو وليد خيال استمد الشكل مما كان معروفا ومتداولا في النماذج البشرية في مراسم الرسامين.

وهنا ينقلنا الدكتور بشر فارس الى ذلك النزاع الذي قام بين الفقهاء والعلماء حول جواز التصوير وحظره وكان الدكتور بشر فارس قد نشر سنة ١٩٥٢ في كتابه « سر الزخرفة الاسلامية » نصا لابي علي الفارسي النحوي المتوفي سنة ٩٨٧ م يستفاد منه صراحة ان التصوير جائز وان الحظر مقصور على « تصوير لله تصوير الاجسام » .

وقد فصل اليوم طرفا من هذا النزاع اعتمادا على ما جاء في كتاب للقرطبي هو « احكام القرآن » ، وبين الاسباب التي تقوم عليها فكرة التجويز عند فريق من اهل العلم . ولكنه يلاحظ ان غالبية هؤلاءالمجوزين من الشيعة او المعتزلة .

وهكذا نجد الدكتور بشر فارس يستكمل اشتات موضوع التصوير عند العرب اصوله وفروعه ، مدارسه ومذاهبه ، انتاجه وظواهره ، كما انحدر الينا في شتى انواع الكتب وصنوف الادب والعلم . وهي خدمة جليلة يقدمها للثقافة الفنية جديرة بان تقرن بالحمد والتقدير .

الاسكندرية — صديق شيبوب

نهر الرماد

لخليل حاوي ـ شعر ـ مع مقدمة لعفاف بيضون ـ ١٠٠ صفحة منشورات مجلة شعر ببيروت ـ دار ريحاني للطباعة والنشر ببيروت

●

لقد سبق لي ان قلت في صور نظرة القيتها على « قصائد اولى » لادونيس :

« هذه القصائد اول ما توجب على منعم النظر فيها ان يسال نفسه هذا السؤال : هل اقرا شعرا غنائيا ام ملحميا ؟ الجواب انك تقرا شعرا فيه من الملحمة وفيه من الغنائية ، في تراوح وائتلاف لا عسر فيهما ولا تعسف : فيه من الملحمة الخلق الرائع ، والمدى الرحب ، والتماسك الفني الرفيع . وفيه من الغنائية انفعالات الذات ، وانعكاسات الحس على مرآة النفس المصقولة ، واقحام نزعات الشاعر في أزمات الانفعال المعاني الم الواقع . »

وها أناذا ، الان ، اقلب النظر في « نهر الرماد » لخليل حاوي ، فاراني مضطرا الى وضع نفسي امام سؤال قد يتراءى ، من نافذة الشعر، مرادفا للسؤال الذي اعتمدناه مدخلا للكلام على « قصائد اولى » وهو : هل في قصيدة «البحار والدرويش» ، التي تصدرت نهر الرماد ، مفترق في الشعر العربي ام ملتقى ؟ الجواب ذو وجهين :

١ ـ باعتبار الانعتاق من اساليب الاستمرار والاجترار ، البحار والدرويش ، او نهر الرماد كله ، مفترق في الشعر العربي .

٢ ـ باعتبار المؤالفة القائمة بين الذاتية والموضوعية ، البحار والدرويش ، او نهر الرماد كله ، ملتقى في الشعر العربي .

وعلى اساس الملتقى ... لا المفترق ... ساتناول خليل حاوي شاعرا تتجاوب في شعره الذاتية ، جبادة الشعر العربي حتى الامس القريب ، وحتى اليوم ...! ، والموضوعية ، الصعيد الفني الذي انطلق اليه خليل حاوي ، في طليعة الرواد الشعراء بالحرف العربي ، هذه الطليعة الرائدة النابية عن رؤية طين ميت هنا وطين حار هناك . وكلاهما طين بطين .

اتمثل ، وانا احس حرارة تتفشى في « نهر الرماد » بين يدي وقبالة وجهي ، فتى يجلس في زاوية من احدى غرف التدريس في الكلية الوطنية ـ الشويفات ، وفي عينيه تشوف الى بعيد بعيد ، وعلى شفتيه المهمتين دائما بالقول ترتسم علامات استفهام ، وكانها تترسم سبيلا الى الجواب . ذلك الفتى هو خليل حاوي هذا ، جاء المدرسة الثانوية بعد تحصيل ابتدائي لم يبرد له عطشا الى المعرفة ولم يسد به جوعا الى الفكر ... كان ذلك سنة ١٩٤٦ ، وكنت استاذ الادب العربي آنشد في المدرسة التي جاءها خليل . ويلوح لي في ما يعودني من ذكريات تلمذة هذا الشاعر انه ، على ضيق وقته كطالب يرشح لنيل شهادة ثانوية ، كان يلجا الى محاولات شعرية يفرغها مرة باللغة الفصحى ، واخرى بالعامية ،

وفي كليهما كانت منافذ الشاعرية مفتوحة للانطلاق برنتي شاعر طويل النفس قوي الجناحين عامر الفكر .

ولم نغب اخباره عني طالبا جامعيا ، ثم استاذا في الجامعة. وكان فيها جميعا موسوما بالتطلع دائما الى ابعد وافضل ...

وفيما كنت احسبه قد هجر الشعر الى الفلسفة ، التي يهيىء نفسه لنيل الدكتورا فيها ، اذا به يطلع على الشعر العربي من تلك المنافذ الشعرية وقد انفرجت على آفاق من الاشراق والانطلاق . واذا بي اقف وخليلا عند هذا « الملتقى » الشعري ، في « نهر الرماد » .

واول ما الحظه في هذا « الملتقى » انني التقي ، الى جانب الشاعر خليل بالاديبة الانسة عفاف بيضون ، التي شاءت ان تجعل من مقدمة نهر الرماد دراسة « مضغوطة الكم » في الشعر عامة ، والعربي منه خاصة . ومن ثم تنتهي الى ما ترى قوله في « ما حاول خليل حاوي ان يقوم به من حاجات » حاجات الشعر قالت الانسة :

« ... اننا بحاجة الى هذا الخيال الخلاق الذي حرره ـ نوفالس ـ من قيوده الالية معتمدا على فلسفة « فشته » وانطلاقتها التي لا تنتهي ، اننا بحاجة الى هذا الايحاء الذي لا بد منه في كل فن صحيح ، والذي افتقدناه في الشعر عندنا حيث كانت تحول دونه رتابة الاوزان ، وتحجر الصور ، وتجريد الالفاظ ، اننا بحاجة الى هذا الخلق المستمر الذي تحدث عنه « برجسون » ، والذي يخولنا ان نستفيد من غيرنا دون ان نفقد اصالتنا ورموزنا ، اننابحاجة الى هذه التجارب العميقة التي توحد بين وجودية الصور والانغام والتعابير ، وبحاجة اخيرا الى هذا الفنالذي يتحسس واقعنا الحياتي دون ان يهبط معه الى مستوى العادي منالامور والاجزاء » .

هذه الحاجات التي عرضتها الانسة ثم راحت تحدث عنها في شعر خليل حاوي هي حقيقة حاجات يجب ان نغني بها الشعر الحديث ، ولكن الغنى الذي نريده لشعرنا الجديد هو غنى يحتفظ فيه شاعره بالتوازن بين الفكرة والشكل او بما اسمته صاحبة المقدمة التآلف بين التجربة وبين تعبيرها الوجودي الصميم . ولا اعني هنا ان هذا التوازن مفقود في نهر الرماد ، ولكنه متفاوت الوجود في قصائد هذا النهر الرمادي الهادر الاعماق . وما قصدت الاشارة اليه هو ان الثقافة الفلسفية العميقة الجذور في تربة الفكر العقلاني ، كثيرا ما يكون ايحاؤها سحيق الرحاب عميق الغور فتضعف فيه المشاركة الفنية الصلة الفضلى بين الشاعر وقرائه . هذه المشاركة التي لا نريدها ان تعني هبوطا بالقيم الشعرية الى متناول القارىء العادي ، غير المثقف . ولكي استند في ما نظرت اليه ، اقدم شاهدا لوجود هذه المشاركة الفنية ، في مجلاهاالرائع، قصيدة « عودة الى سدوم » التي من اجلها قال الشاعر نزار قباني :

« ... هذا شاعر ذو شخصية جذابة ... خليل حاوي لا يستعير اصابع الاخرين ولا يشرب من سحابرهم . انه جديد طازج الحروف ... يهدر خليل حاوي في «عودة الى سدوم» بحنجرة نسر ... يقف بكبرياء



قمة ليجلد بسياط احرفه المؤمنة الخصيان الضنال ... جلدا يستثير تهليلنا وتكبيرنا ... فقصيدتك مشروع معجزة صغيرة ، وبتراكم هذه المعجزات الصغيرة يمكننا ان نبني بلادنا . »

وهل من الحق في شيء الا ناخذ برأي الخبير الفني ؟ وهل حلا الفن الزاخر بالمشاركات الفنية في الشعر باكثر مما حلا في شعر نزار قباني .

وعلى ذكر الشاعر قباني ، شاعر الاغراءة الفنية ، في النهضة الحديثة ، يطيب لي ان الفت النظر الى كلمته هذه في « صاحب عودة الى سدوم » طرفة صغيرة من طرائف الفن الوصفي .

يجب ان نحمد لخليل حاوي صفاء فكره يستوعب من الفلسفة والتاريخ ما يتجاوب ويتالف فينصهر في اعماقه معاناة يتناولها الحدس الخلاق ليبرزها في فن تذوب فيه ذات الانسان الشاعر ذوبا تفيض عليه اصالته الخيرة المشرقة المطمئنة . حتى اذا ما اشتدت حرارة التجربة العميقة جاء ذلك الفن هادرا عاصفا متحديا . وهذا ما دعاني الى ان اسمي نهر الرماد ملتقى لا مفترق في الشعر العربي . فالانسان لن يهنا الى حضارته ما لم يتفاعل شعوره وحسه على ضوء من فكره ورقابة من عقله . وهذا التفاعل الداخلي الخارجي ، او الذاتي الموضوعي هو نوع من الحمل العقلي الروحي لا يخلو من الالام ، ولكنها الام مولدة لتشيع عليها ابتسامة الخلق والعطاء . هذا التفاعل الذي عبروا عنه بالتجربة ، واسميته معاناة ، هو ميزان القيم في نظر المجددين والقائلين بالجديد ، وانا من هؤلاء ، ولكن على ان يحتفظ الشاعر بقسط من استواء الكفتين بين عمق التجربة وصحة الفن .

غير ان عمالقة الضمير من مثل خليل حاوي يخلعون على شعرهم من محاسن انسانهم الطيب ، المستقطر عبر التاريخ رسالة ، واساطير البطولة ملحمة ، وكبر العطاء سخاء ، فيخلقون المشاركة الفنية حركة داخلية ، تنبض بها العبارة الحية ، بدلا من ان تكتفي بالزينة اللفظية ، والقيمة الفكرية . فاسمعه يقول في خطابه نسل سدوم :

لست بوذيا بحبي
اطعم الطحلب والقمل شراييني وقلبي
فليمت من مات بالنار
وبالطوفان ... لن ابكيك يا نسل سدوم
لن تموت الارض ان متم ...
لها بعل الهي قديم
طالما حنت اليه عبر ليل العقم ...
انثى واله
فضها البعل ورواها
ففصت بالرجال الالهة

ثم اسمعه وقد تحول الغضب الهادر الى تساؤل عميق كالحياة رحب كالسماء ، يقول في عنف الفارس البطل ، وهدوء المؤمن المصلي :

أترى يولد من حبي لاطفالي
وحبي للحياة
فارس يمتشق البرق على الغول ،
على التنين ، ماذا هل تعود المعجزات ؟
بدوي ضرب القيصر بالفرس
وطفل ناصري وحفاة
روضوا الوحش بروما ، سحبوا
الانياب من فك الطغاة
رب ماذا ،
رب ماذا ،
هل تعود المعجزات ؟

ثم تنصهر معاناته في صلاة فيها كل خليل حاوي المذيب ذاته في موضوع التطلع الى غد العزة في بلاده ، فيقول ، مصليا :

باسم ما احرقت من نفسي بنفسي
لاصفي وجه تاريخي وامسي
باسم هذا الصبح في « صنين » ،
والعتمة خلفي وجحيم الذكريات :
ليحل الخصب ولتجر الينابيع
ويمض « الخضر » في اثر الفزاة
فارس يولد من حبي لاطفالي
وحبي للحياة
لتحل المعجزات
رب ماذا ،
رب ماذا ،
هل تعود المعجزات ؟

واني ، يا خليل ، لمنتظر ان تكون وقادة الفكر والشعر من الشبان المؤمنين بقوى الحياة فيهم ، اهلا لقولك :

اخرسي يا بومة تقرع صدري ،
بومة التاريخ مني ما تريد ؟
في صناديقي كنوز لا تبيد .

نسيم نصر

ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية

لجورج صيدح ـ طبعة ثانية منقحة ومزيدة ـ ٦١٦ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع دار العلم للملايين بيروت

●

تعرف المكتبة العربية طائفة من الكتب التي المت بالحركة الادبية في المهاجر الامريكية فارخت لها وتحدثت عن اعلامها ، منها كتاب « الناطقون بالضاد في امريكا » الذي كتبه بالانجليزية ابراهيم حبيب كاتبه وترجمه الى اللغة العربية البدوي الملثم يعقوب العويدات ، ومنها كتاب « الناطقون بالضاد في امريكا اللاتينية » للعويدات ، ومنها « ذكرى الهجرة » و « وحي السبعين » لتوفيق ضعون ، ومنها « مع الناس » لمحمد علي الحوماني ، ومنها « شعراء الرابطة القلمية » لنادرة جميل سراج ، ومنها كتب في دراسة شعر المهجر لمحمد قرة علي ووديع ديب ومحمد عبد الغني حسن ومحمد يوسف نجم بالاشتراك مع احسان عباس ، ومنها كتب تخصصت في دراسة اديب معين من ادباء المهجر ككتابي زهير ميرزا وعيسى الناعوري عن ايليا ابي ماضي وكتاب الناعوري عن الياس فرحات وكتاب مخائيل نعيمة عن جبران خليل جبران وكتاب العويدات عن فوزي المعلوف ورسالة نظير زيتون عن رشيد عطية وكتابي محمد عبد المنعم خفاجي ورزوكس بن زائد العزيزي عن احمد زكي ابي شادي ... وهلم جرا . ولكن المكتبة العربية لم تعرف موسوعة في الادب المهجري تحاكي موسوعة جورج صيدح التي ظهرت طبعتها الاخيرة بعنوان « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية » . فهي سفر متكامل مترابط البناء ، فيه لكل اديب مهجري مكانه الحقيق به ، وفيه دراسة نقدية منهجية رصينة لادب المهجر وادبائه ، وفيه فوق ذلك نماذج من الشعر والنثر تمثل جميع النزعات التي ميزت ادباء المهجر بالتجديد والابتداع .

وقد تفردت موسوعة صيدح عن سواها من الدراسات التي تناولت ادب المهجر بان صاحبها لم يقصرها على اديب واحد ، بل وسعها لتشمل الادباء جميعا . ثم ان جورج صيدح لم يكن مجرد مراقب للحياة الادبية في المهاجر الامريكية ، بل كان عاملا في خضم هاته الحياة يعاصرها ويغذيها بنتاجه ويشارك فيها مشاركة جادة . وكان يحيا تلك الحياة مصبحا

وممسيا ، ظاعنا ومقيما ، مختلسا من اوقات الكفاح اليومي ما يقفه على متابعة الحركة الادبية متابعة حثيثة وعن كثب . كما ان جورج صيدح جعل وازعه الوحيد في النقد هو التذوق ، فلم يعترف بمدارس ادبية مما يتحدثون عنه ، ولا تاه في حلبة المذاهب الفكرية التي يلفظ بها بعض النقاد ، بل عد نفسه من العامة السذج وقال « نحن العامة لا نحفظ ابلغ الاشعار لغة ، بل ابلغها فكرة وحكمة وعاطفة ... ونحن العامة لنا منطق ساذج . نعلم ان الشعر لا ينهض الا على قائمتين : المعنى الموفق واللفظ الموفق ، فان مشى بقائمة واحدة اعياه المسير وغشي عليه قبل بلوغ الشقة » . وقال ايضا « ان من اراد ان يتذوق الشعر بحاسة علمية كان كمن يمضغ الوردة بدلا من ان يتنشقها » .

واشهد ان « سذاجة » جورج صيدح قد الهمته توفيقا كبيرا في انتقاء مادة موسوعته وفي حسن عرضها وفي الاحتكام الى الذوق ، فجاء كتابة متعة ذهنية وروضة ادبية وثمرة مشتهاة ، وكان دفاعه الهادىء الخالي من كل اثر للعنف او للثورة ، دفاعا نصر قضية الشعر المهجري وكسب لها مؤيدين ومتشيعين . فقد ادرك جورج صيدح ان القضية القوية السليمة تناصرها العدالة متى عرفت جميع اركانها وقرائنها ، ولهذا جعل يسوق تلك القرائن ويستشهد بالنماذج المعززة لحجته ، فما انتهى من كتابه حتى كان حكم القارىء المنصف الى جانب الادب المهجري ، في غير ما تحيز او هوى .

وما دام جورج صيدح قد ركب المركب العسير ، واخذ على عاتقه ان يؤرخ للمهجريين جميعا ، فلا بد اذن من معاتبته على امرين : اولهما انه تحدث بايجاز يكاد يكون مخلا ، عن مهجريين لامعين مثل نعوم وسلوم مكرزل وراجي ضاهر وفرح انطون ونظير زيتون ، وكنا نتوقع منه عن هؤلاء مزيدا من التفصيل يشفي الغلة ويمحو علة الجهل منا نحن المقيمين . وثانيهما انه اغفل عددا من المهجريين او الذين عاشوا في المهجر فترة ما ، مثل الدكتور جورج خيرالله الذي اصدر في نيويورك مجلة « العالم العربي » باللغتين الانجليزية والعربية للذود عن قضايا العرب ، والذي الف كتابا عن جبران واخر عن النبي محمد وثالثا عن بعث جزيرة العرب . ومع ذلك فان جورج صيدح لم يخصه ولو باشارة عارضة ولم يدرج اسمه بين الاسماء الكثيرة التي سردها . ثم انه اغفل كذلك نقولا الحداد وزوجته روز انطون حداد « شقيقة فرح انطون » فقد هاجرا الى الولايات المتحدة في اوائل هذا القرن وعملا هناك في تحرير « الجامعة » اليومية و « الجامعة » الشهرية . ولم يكتب جورج صيدح شيئا عن صفية ابي شادي التي اصدرت وهي في الولايات المتحدة « اغنيتها الخالدة » وهي خطرات فكرية لفتاة موهوبة تستحق كل تقدير واطراء . كما ان صاحب الموسوعة نسي ان يحدثنا عن الشاعر « جورج صيدح » اكتفاء بايراد نماذج من شعره في صلب الكتاب وفي ذيله . وليته فعل كما فعل صنوه الشاعر القروي رشيد سليم الخوري حين ترجم لنفسه ترجمة امينة عذبة ، او ليته استنجد بصديقه الكاتب اللوذعي نظير زيتون ليقدمه الى القراء . فقد خرجنا من موسوعة جورج صيدح بلا شيء عن جورج صيدح نفسه ، وان كنا عرفنا فيه شاعرية خصبة اصيلة فطر عليها واشربت به ، وان كنا عرفنا عنه فضلا عن ذلك كفاءة نظريها ونشيد بها في معالجة قضايا الادب معالجة رصينة ناضجة، على الرغم من ان شطرا كبيرا من مادته كان موزعا بين خلايا الذاكرة وصفحات الدوريات ورسائل الاصدقاء .

وما دام جورج صيدح قد تصدى لعمل ادبي منهجي هذا مداه ، فلنا عليه عتاب اخر ينسحب على الشكل لا على المضمون . فقد عف الكاتب عن الاشارة الى مراجعه الا في القليل ، وترك القراء حيارى اذا ما شاء واحد منهم ان يرجع الى مظانه . وعذر جورج صيدح الواضح ان هذا الكتاب هو اصلا سلسلة من المحاضرات ، وان الذين يحاضرون لا يحبون اعتراض مجرى الحديث للاشارة الى هذا المرجع او ذاك . ولكن، ما دامت المحاضرات قد انتقلت من مرحلة المشافهة الى مرحلة الفصول المدونة في كتاب ، فكان يحسن بجورج صيدح الا ينبذ هذا المنهاج العلمي، لاسيما وانه قد رأى تذييل كتابه بفهرس للاعلام تيسيرا لمهمة المراجع.

وقد احصى جورج صيدح (على صفحة ٨٦) ناظمي الشعر باللغة الانجليزية ، فقال انهم جبران ونعيمة ومسعود سماحه دون غيرهم . وفاته ان احمد ذكي ابا شادي كان ينظم شعرا باللغة الانجليزية ، وله ديوانان طبعا على الالة الكاتبة في عام ١٩٥٣ في نيويورك ، احدهما عنوانه « اغاني العدم » وثانيهما عنوانه « اغاني المرح والحزن » .

وقال المؤلف (على صفحة ٣١٤) ان الدكتور ابا شادي اصدر اربعة دواوين اثناء اقامته في نيويورك وهي « الانسان الجديد » و « النيروز الحر » و « من اناشيد الحياة » و « ايزيس » . والواقع ان هذه الدواوين جميعا لما تصدر ، لانها لا تزال مخطوطة ، اما الديوان الذي صدر له في نيويورك فعنوانه « من السماء » . وللدكتور ابي شادي كتب اخرى طبعت في خارج المهجر عندما كان هو هناك ، منها « من نافذة التاريخ » في جزءين و « مملكة النحل » وكتاب « عظمة الاسلام » الذي قدم له رضوان ابراهيم و « رباعيات عمر الخيام » التي صدر لها روكس بن زائد العزيزي . وكل هذه المؤلفات لم يشر اليها صيدح في موسوعته.

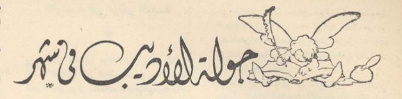
والحق ان هذه الموسوعة الصيدحية كتاب نفيس يقتنى وسفر جليل يمتعويطرب. وقد استهواني هذا الكتاب بامانة مؤلفه ونزاهةاحكامه ودقةملاحظته وبطابع الروائية الذي يطبعه ، فصاحبته في العشاياوالتذذت بمادته واستعدت مقطوعاته المنتشرة في ارجائه ، ووجدت فيه جسرا ضخما يمتد من قلب العالم العربي ليتفرع الى فرعين كبيرين احدهما في امريكا الشمالية وثانيهما في امريكا الجنوبية ، يمر عليه رسل الثقافة والوطنية والابداع الفكري واحدا واحدا لنصافح موكبهم وفي طليعته الرواد الموهوبون العباقرة امين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ورشيد ايوب ونسيب عريضة وايليا ابو ماضي وندرة حداد وعبد المسيح حداد وجورج صيدح والشاعر القروي والياس فرحات وشفيق المعلوف وفوزي المعلوف واخوانهم ممن رفعوا مشعل الضاد في بلاد الاعاجم .

وقد اعاننا جورج صيدح على معرفة ادباء المهجر معرفة شخصية بما سرده عن حياتهم الخاصة وبما رواه من مطارحاتهم ومنادماتهم ومجالس جدهم ولهوهم ، فعرفنا في الشاعر القروي قديسا للوطنية ـ كما سماه المجاهد اكرم زعيتر ـ وعرفنا عن الياس فرحات ان موهبة الشعر تفجرت فيه على غير دراية باللغة وادابها ، وعرفنا عن ادباء المهجر كفاحهم في سبيل الرزق وبلاءهم في اقتناء اللقمة من « الكشة » وتعلقهم بالوطن العربي ، وهيامهم باللسان العربي . عرفنا عنهم كل هذا واكثر منه ، وكيف ان فقراءهم يتبرعون بحر مالهم لنصرة قضايا العرب كما فعل القروي وفرحات وغيرهما ، وكيف ان اغنياءهم جادوا بمالهم في سبيل مناصرة الحركة الثقافية في العالم العربي ، كما فعل نعمه يافث . وليت جورج صيدح حدثنا عن مبرة موسى كريم في الشام ، فهي مأثرة من مآثر المهجريين وكلهم انسان رهيف الحس صادق الوجدان .

واجب النصفة يقتضينا ان نقر بان جهل الادب المهجري ظاهرة عامة في الوطن المقيم . وقد كان لنا في الماضي عذر ازاء هذا الجهل ، اما وقد اصدر جورج صيدح موسوعته ، فلم يعد لنا عذر في جهل هذا الادب الحي المتجدد الشامخ ، ولا في تجاهله .

والمأمول ان تنتضى الاقلام لتناول ادب المهجر بعناية تفوق العناية السابقة به ، حتى لا يتورط اديب في احكام مبتسرة كتلك التي نسمعها من المرتجلين المتسرعين غير الدارسين في الحين بعد الحين .

القاهرة — وديع فلسطين



حول حفلة التكريم بذكرى ابو ماضي

●

حضرة الاديب المشرف على الصفحة الادبية في جريدة الديار الفراء .

اهديكم سلامي على شرط ان تفسحوا صدر هذه الصفحة لكلمتي وتفتحوا صدركم لملاحظاتي بعد ان حضرت الحفلة التذكارية التي اقيمت لايليا ابو ماضي في الجامعة الاميركية .

انني عضو « غير عامل » في لجنة التكريم واريد ان اهنىء الاعضاء العاملين الذين نظموا الحفلة على نجاح جهودهم مع شيء من التحفظ والنقد البريء .

ان اللجنة التنفيذية احسنت القيام بمهمتها من الوجهة التحضيرية واستعملت في سبيل ذلك صلاحيتها ، واكثر من صلاحيتها .. اسجل لها بمقالات متتابعة نشرتها عن حياة ابو ماضي حركت بها الذكريات الراسبة واثارت الاهتمام العام ، وبعد الحفلة جاءتنا بعددمن الجريدة هوحفلة تكريم ثانية لابوماضي استوعبت المقال الافتتاحي والصفحة الثالثة .

فمن جهة الدعاية لم تبق جريدة معتبرة الا اعلنت عن الحفلة ، وعلي بهذه المناسبة ان انوه بالموقف الرائع الذي وقفته جريدة الحياة قبل الحفلة وبعدها . فقبل الحفلة مهدت لها بمقالات متتابعة نشرتها عن حياة ابو ماضي حركت بها الذكريات الراسبة واثارت الاهتمام العام ، وبعد الحفلة جاءتنا بعددمن الجريدة هوحفلة تكريم ثانية لابوماضي استوعبت المقال الافتتاحي والصفحة الثالثة . حقا ان يقظة صاحب الحياة كصحافي وغيرته كمواطن عربي واحساسه كاديب ، لهي اشياء اندر من الكبريت الاحمر في محيطنا الاخضر. وقلمه الذي يتفجر عاطفة ويتفطر حرقة كلما مر على اسم اديب مهجري حيا كان او ميتا ، لهو بركة من بركات الوطن على ابنائه المغتربين، لا شك انه يكتب متأثرا بالانطباعات التي حملتها ذاكرته من المهاجر فهو قد زار بعضامن الجمهوريات الاميركية ، اما زميله محمد قره علي الذي لم يزر المهاجر ولا عرف شخصيا الادباء الذين يؤثرهم ويتغنى بشعرهم كابو ماضي والقروي ونسيب عريضة فمن الغرابة ان نجده يغلي حماسة للادب المهجري فيلتقط كل شاردةوواردة عنه وينقلها الى العالم العربي عن طريق جريدة الحياة ، او يترقب حضور اديب من ادباء المهجر ليحتفي به ويكرس وقته لصحبته . فكانه الضحية المتطوعة لكل حدث له مساس بالمغتربين . وقد رأيناه اكثر اهتماما باستقبال الوافدين الى حفلة ابو ماضي من اعضاء اللجنة انفسهم ، يدور كاللولب بين الابواب والمقاعد لاجلاس الحضور

اما بطاقات الدعوة فقد رايتها في كل يد وعلى كل مكتب مما يدل على نشاط محمود . وما كان بالمستطاع عمليا ملافاة النسيان او التنبوء باسماء جميع الراغبين بحضور الحفلة من سكان بيروت . يكفي ان اللجنة اعلنت ان الحضور مباح لغير المدعوين وان البطاقات ما هي الا وسيلة للتذكير . وقد قرانا هذا الاعلان في اكثر من جريدة .

وبعد ، فهل كانت الحفلة ناجحة ؟

ان كان عدد الحضور هو مقياس النجاح ، فنجاح الحفلة كان منقطع النظير . في الموعد المضروب للاجتماع كان في قاعة الجامعة الاميركية الف وخمسماية شخص بين قعود ووقوف ، وعدد كبير لم تستوعبهم القاعة فوقفوا خارجا يتسمعون الى ان اضطرهم البرد الى الانسحاب .

هذه ظاهرة لها وزنها الثقيل في ميزان الحرارة الادبية عند الجمهور ، لا نعني فقط ان الادب في لبنان لم يزل على قيد الحياة بل نعني ان حيويته لم تزل نابضة قوية ، لا تخنقها يد ظاهرة او خفية ، ولا يد حزبية ، حتى ولا حكومية .. ان هذا السيل المتدفق من الادباء والمتذوقين اذهلني عن غياب الجداول الصغيرة من فئات الحردانين ، والرجال الرسميين ، وغيرهم ...

لقد سرني ان ارى الدكتور شارل مالك في مقدمة الصفوف ولم استغرب من الرجل الكبير مثل هذه الشجاعة الكبيرة . لم يحضر سواه من مرتبة الحكام ولكن رب فرد بمقام الف .. وساءني ان لا ارى وجها واحدا من الوجوه الدبلوماسية العربية ، اين سفراء العراق والاردن والسعودية ومصر واليمن واين المستشارون والملحقون المفروض عليهم الاتصال باهل القلم والاندماج في المحافل الادبية ؟ هل جاءهم ان وزراء الدولة قاطعوا الحفلة فزالت رغبتهم في حضورها ؟ الا من صلة تربطهم بالادب العربي وبالجمهور البيروتي غير صلة الوزراء ؟ ان ايليا ابو ماضي هو شاعرهم مثلما هو شاعرنا ، شاعر الامة العربية جمعاء .

أليس من اللياقة الدبلوماسية ان يشارك ممثلو الدول الصديقة الشعب اللبناني الذي يعايشونه ويحرصون على مودته ، في عواطف الاسى حين يبتلي بمصاب او في مظاهر التكريم حين يقوم بواجب وطني نحو شاعر من ابنائه النابغين ؟

واغرب من هذا ان ثمانية من زملائي في لجنة التكريم تخلفوا عن الحضور .. بلا سبب ولا اعتذار . وانا لا افهم كيف يكون صاحب الدعوة غائبا عن موعد ضربه لمن دعاهم ؟ الم ير اسمه على بطاقات الدعوة ؟

امامي رسالة من اديب مصري كبير قرا في الصحف خبر حفلة التكريم لابو ماضي فكتب ما نصه :

« اشاركم مشاركة قلبية في احتفائكم بذكرى فقيد الشعر المعاصر المأسوف عليه ايليا ابو ماضي الذي خلف افتقاده في كل نفس عربية لوعة لا تهدأ وفي كل عين عبرة لا تفيض . واشكركم باسم الادب والادباء ان تقوموا عن العرب جميعا بتكريم ذكراه ، فهو لم يكن شاعرا لبنانيا ولا سوريا ولا مصريا ولا مهجريا ، ولكنه كان شاعر الانسانية كلها ، وكان سفير العروبة في بلاط الفن الانساني كله ، وان كان ابو ماضي قد ووري الترابولم يعد له من التكريم او الحفاوة جدوى ، فان عملكم هو تكريم للادب وتشريف للادباء ، ورد اعتبار لكل اديب مكافح يفني عمره او يريق سواد عينيه على اديم الصفحات لتستحيل على مر الايام اكليلا في جبين الانسانية ومدماكا في بناء عزتها وكرامتها ونورا يضيء لها مجاهل الطريق الى الرخاء والرفاهية والسلام » .

ولكن نجاح الحفلة عدديا لا يكفي . كان الواجب ان تنجح موضوعيا ، وعلى اللجنة تقع مسؤولية الخطب التي القيت لا على الخطباء وحدهم ومعلوم ان الغاية من الخطابة في حفلات الذكرى التأبينية هي اقناع السامعين بجدارة الفقيد بمظاهر التعظيم والاجلال التي تقام لاجله ، والاحاطة بما خفي من آثاره ومآثره الفراء ، والاشادة بخدماته الوطنية الادبية الى غير ذلك من مسوغات التكريم

وهنا اتساءل : هل يخرج السامع من حفلة ابو ماضي بفكرة عن قيمته الادبية وعن قيمته الانسانية اعلى واوضح من الفكرة التي كانت في ذهنه قبل حضوره الحفلة ؟

اقول لا . وهذا ما يحملني على التحفظ في تقدير نجاح الحفلة .

افتتحت الحفلة بالوقار والخشوع بعد ان وقف الحاضرون دقيقة في صلاة صامتة ناجوا بها روح الفقيد . وساد هذا الجو المهيب ساعة من الزمان تكلم في اثنائها ثلاثة

خطباء فلم يتجرأ الحضور على التصفيق حتى جاء دور الاستاذ نعيمة – رجل الجد والاتزان ورفيق الفقيد الغالي في حياته الشخصية وحياته الادبية – فاخذ بالتنكيت على غير عادته ، وبالغمز واللمز على عادته ... حتى علت القهقهات واندلع الهرج والمرج في حفلة التأبين . ويلوح لي ان هذا هو السبب الذي حمل الشاعر ميشيل طراد (كما جاء في جريدة السياسة) ان يقول :

ليست هذه حفلة تكريم لايليا ابو ماضي بل هي مؤامرة على ايليا ابوماضي .

كلمة الرثاء الوحيدة كانت قصيدة الاستاذ جورج صيدح قصيدة مؤثرة كما تقول جريدة الحياة ، طويلة كما تقول جريدة النهار ، اما الكلمة عن قيمتها الفنية فلا تقال الا بعد ان تنشر القصيدة وتوضع على المحك او الغربال، انها قصيدة وفاء للصديق الراحل ووفاء للمهمة الموكولة الى الشاعر ووفاء لرسالة الجمال والصدق والتجديد الفكري في قالب الشعر التقليدي والذي عابها كونها تاريخا ذا اتجاه واحد ، اطراها من حيث لا يدري . فالوحدة في القصيدة هي اولى شروط الاجادة ومتى تعدد الخطباء في اداء مهمة واحدة كان على كل واحد منهم ان يقصر كلامه على ناحية واحدة ويترك لرفاقه مجال الكلام على نواح اخرى ، حتى لا تتوارد الافكار وتتردد الشواهد والعبارات .

وقد لاحظت ان شاعر الحفلة هو الخطيب الوحيد الذي ارهق نفسه في اعداد كلمته احتراما للحضور وارضاء لنفسه اما الباقون فاتحفونا من فضلات موائدهم .. سمعنا من الانسة نازك الملائكة تحليلا موفقا مركزا لشاعرية ابو ماضي ، ولكنه جزء منسوخ من دراسة طويلة تنوي الشاعرة البارعة نشرها قريبا ، وسمعنا من الشيخ العلامة عبدالله العلايلي تعليقا رائعا على قصيدة الدمعة الخرساء كان نشره في الصحف منذ اسابيع فاضاف اليه تاجا مرصعا في المقدمة وذيلا مدبجا في المؤخرة . وبعده وقف الدكتور سامي دهان فكان فصيحا بليغا مع انه لم يكشف الا عن جزء سطحي من معارفه العميقة الواسعة . وكان مسك الختام – لسوء حظ ايليا ابو ماضي – خطاب الاستاذ نعيمة الذي تعمد ان يذكرنا « بانانية ابو ماضي وعداواته » وباسخف شعر قاله قبل ان يقتبس المعرفة والفن والابداع من « الرابطة القلمية » التي كان الخطيب مستشارها وراعيها فان قارنا كلامه بما كتبه الاديب المصري بمناسبة وفاة ابو ماضي كما ورد آنفا ابتل جبيننا بعرق الخجل ولله في خلقه شئون وانا اليه لراجعون.

[الديار] حزام

القومية في مؤتمر الادباء

●

لقد كان اختيارا موفقا ان يلتفت الادباء الواعون في العالم العربي هذه اللفتة القوية نحو مركز انطلاقهم ، ومجالي انتصاراتهم التي كسبوا بها تقدير العالم المتحرر الساعي نحو حياة بشرية افضل .

وان تكون نقطة تجمعهم هي القومية العربية التي شرف الادب العربي المعاصر ان يكون في مؤتمره هذا اطارا للصورة المضيئة التي تنشر اشعتها على حنايا طريقنا الجديد فتغمره بالنور والامل والمجد ، وتدفعنا نحو انطلاقات من الرخاء والسلام والسعادة البشرية .

وكان مفروضا ان الادباء حين يأتمرون ليتدارسوا موقف ادبهم حيال القومية ، وليكشفوا اضواءه حول انطلاقاتها الجديدة ، ان يكون لهذه القومية وهي الموضوع والمحور وحجر الزاوية في المؤتمر مفهوم يتداعى الادباء حوله على كلمة سواء .

وكان مقدرا – ما دام الموضوع ذا شعبتين – ان يتقاسمه الادباء المتخصصون للادب ، والدارسون الذين وعوا القومية ومارسوها كتابة ودراسة وعملا .

واستقر في حسباننا ونحن نقرا الصحف ونستمع الى الندوات التي تمهد للمؤتمر اننا سنتتلمذ على اعلام القومية والادب ، فنفيد من علم هؤلاء وفن اولئك لنخرج بشحنة جديدة ، وعمل مبلور ، يشحن به الادب وعي الشعب العربي ، ويتغلغل به في واقع رجل الشارع لا في القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ولكن في القرى والنجوع حيثما تتغلغل الكلمة، وتنفسح آماد القراءة والكتابة ، ليلقنها للراي العام العربي الذي هو عماد الامة العربية والذي يكتب عليها امجادها وانتصاراتها .

لكننا حينما افتقدنا الدارسين المتخصصين في القومية ، ووجدنا كل كراسي المؤتمر قد شغلت برجال الادب ظننا ان موضوع القومية مفروغ منه ، وان بين الادباء اتفاقا على مفهوم محدد واضح يصلح محورا يدور حوله الشق الاخر وهو الادب وظننا اننا وحدنا الجاهلون بماهية القومية ، ولكننا كدنا نذهل حينما بدا كبير من كبراء الادب يتحدث عن القومية فاذا هي الدين ولا شيء غير الدين ، ولما جاء دور النقاش ، وجرؤ احدنا ان يستوضح اذا التخبط يطل براسه ويخرج لسانه للمؤتمر ، واذا المؤتمرون ينظر بعضهم في وجوه البعض الاخر مبهوتين ، واذا المؤتمر اخر من يعلم !!

وقام بعض المؤتمرين – وهو من الذين يوجهون مصائر الثقافة القومية في بلد كبير – ليجيب عن التساؤل بلهجة حاسمة تقريرية ، بان القومية شعور متغلغل في نفوسنا ، نحسه جميعا ولا نقوى على الافصاح عنه ، وكل من لم يستشعر هذا الاحساس فليس عربيا ، وليس اديبا ، القومية كالماء والنور نحسهما ولا نستطيع تحديدهما .

هذا هو التفسير في راي الاديب الكبير ، وتقول لهجته الحاسمة الجازمة انه ليس للقومية اي معنى غير هذا .. اي ليس لها معنى على الاطلاق !

واذن ففيم كان اجتماع الادباء ما دامت القومية التي جاء الادب يتلمس الوسائل السديدة للتعبير عنها قد بدأت وانتهت في حركة لسان ؟ اليست مهمة الادب ان يلقي الاضواء على جوانبها الحارة النابضة المتطورة ليعمق مجراها ويبشر بها ، وينطلق معها في مسارب النفس العربية المعاصرة ؟

★ ★ ★

صحيح ان القومية العربية بالذات كسبت من زمالتها للدين كسبا كبيرا جدا ، ولكنه اسلمها مقاليد الامة العربية بعد ان وعاها ودربها على المحبة والالفة والتسامح وسعة الافق ، واخرجها من قوقعة الجزيرة الى فضاء العالم ، وفتح اعينها على الحضارات الانسانية النامية .

وصحيح – الى حد ما – ان القومية العربية كانت مشاعر ، ولكنها مشاعر نابضة تتلمس منافذ الانطلاق والتكيف والتفلسف لتصبح شيئا اكثر من الشعور ، وكان ذلك في طفولتها ، وكان ذلك نكبة عليها يوم اعدناها طفلة في الماضي القريب تتغذى على المشاعر وحدها ، ويتلاقى باسمها زعماء العرب فيتعانقون وتشيع بينهم القبل المعطرة ، والتحيات الحارة ، والعواطف الجياشة ، والخطب الرنانة ، ثم يستديرون فاذا طعنات بعضهم في ظهور بعض باسم الزعامات، واذا الاوطان تباع باسم المصالح الخاصة ، واذا الحروب لحساب الاستعمار ، واذا الوطن العربي مفتت ، مشتت المآرب والاهواء ! واذا الشعب العربي ضائع مهدور الواقع مظلم المستقبل .

كل ذلك لان عواطف الافراد هي المرآة العاكسة لواقع القومية العربية .

وحينما وعت الشعوب العربية ، وانطلقت بفطرتها تصنع قومية حقيقية من وعي واقعها، وتشكل بتحركاتها الجديدة واقعا متعادلا من العواطف والمصالح الحيوية المتبادلة ، وكسبت ما كسبت من انتصارات كبيرة تصنع بها مستقبلا مجيدا لنفسها ، وتبدأ بها علاقة كريمة مع الانسانية المتحضرة .

حينئذ يصبح تمسكنا بهذه المعاني الانتكاسية ردة مدمرة لكل ما معناه الوعي الجديد باسم

القومية ذات الخطوات الايجابية الواسعة التي نعيشها وندفعها وتندفع بها .

ذلك خطأ كبير تولد من وهم صغير ، وهو ان المؤتمر ما دام مؤتمر الادباء فليس فيه مكان لغير الادباء حتى ولو كانوا هواة لم يتخصصوا ولم يتعمقوا الادب ولم يعوا من تياراته وتحركاته على ارض الحياة . الا انه كلمات جميلة يتلهى بها السذج من قراء الامة العربية ، وبذلك نحي عن المؤتمر الكثيرون من رجال الفكر والقومية ، ولم ينتفع المؤتمر بهم حتى حين تعدى المؤتمر اختصاصاته وخرج من نطاق الادب المحض الى نطاق البحث الفكري الخالص الذي يدخل في صميم نطاق العلوم الانسانية ذات التخصص الدقيق

وكان اجدر بالمؤتمر منذ البداية - ليؤمن انطلاقه بلا تخبط - ان يستعين بالمتخصصين ولو بوصفهم خبراء يصنعون مع هيئة مكتبه من وراء الستار تلك الخطوط العريضة التي تشكل القاعدة الاولى وهي تحديد المفاهيم الاولية التي يقوم عليها ومن اجلها المؤتمر ، او على اضعف الايمان ان يستعين بالبحوث الرائدة التي جهد اصحابها جهودهم لوجه العروبة من امثال ساطع الحصري ونقولا زيادة ونبيه فارس وجورج حنا ويوسف هيكل وقسطنطين زريق وعلي ناصر الدين والامير مصطفى الشهابي ، وامين سعد وكمال الحاج وعبد اللطيف شراره ومنيف الرزاز وعبد الرحمن بدوي واسحق الحسيني وغيرهم .

★ ★ ★

ربما كان ذلك لان المؤتمر تجاهل القومية العربية ، واستنكف ان يكون الادباء في حاجة الى تلقين المبادىء الاساسية للقومية ، وافترض فيهم العلم والمعرفة اكثر مما يجب .

وربما كان ذلك لان المؤتمر اخذ طابعا رسميا اكثر مما يجب ، فاتجه الى الهيئات الحكومية اكثر مما اتجه للافراد ذوي التجارب والعبرات ، حتى لقد كانت سكرتارية المؤتمر - كما هو مرسوم لها - تتصل بالمجلس الاعلى للفنون ليتصل بوزارة التربية المصرية لتخابر وزارة الخارجية المصرية ، لتخابر وزارات خارجية الدول العربية لتخابر كل منها وزارة المعارف في كل بلد عربي ، لتتصل بالجامعات والهيئات الرسمية وشبه الرسمية لاختيار الادباء الذين يمثلون بلادهم في المؤتمر وتعود هذه الحلقات نهز بعضها بعضا حتى يصل الرد الى سكرتارية المؤتمر ، وهكذا تهتز هذه الحلقات جميعا على ثقلها وبطئها كلما جد استفهام او استعلام ، وكل هذه الحواجز العالية بين السكرتارية والمؤتمرين شكلت عقبات وعرة ، وادخلت اهواء واغراضا في اختيار اعضاء الوفود وفي التخصص للمؤتمر حتى وضعت مصير الادب في يد موظفين في مختلف الدول العربية قد لاتكون لهم صلة ما بالادب .

وحتى في اختيار الهيئات الرسمية التي اتصل بها المؤتمر كان التوفيق في سبيل غير الذي سلكه المؤتمر ، فحينما شاء المؤتمر ان يدعو وفدا من الجامعة العربية اتجه الى الادارة الثقافية في الجامعة العربية ، فشكلت وفدا من موظفيها لم يسمع له صوت ولم ير له وجه في المؤتمر .

ونسي المؤتمر ونسيت الجامعة العربية ان هناك معهدا يسمى « معهد الدراسات العربية» منبثقا من الجامعة نفسها لدراسة القومية العربية وتخصيص طلابه فيها وتجميع الادب والتاريخ والاقتصاد والاجتماع والقانون في الدول العربية حول محور واحد هو القومية العربية

ومع ذلك فلم يتنبه المؤتمر له ليوجه اليه الدعوة ، ولم تتواضع الادارة الثقافية فتحول اليه الدعوة او تشير باصبعها الى مكانه ، وقصة هذا المعهد المهمل قصة اليمة ، فانه انشىء باموال الامة العربية ليثقف شباب الامة العربية من خريجي الجامعات وليحمل فيهم مسؤولية خطيرة في هذه الاونة من حياة العرب ، وهو قائم في قلب القاهرة وفي ارقى احيائها ، ومع ذلك فلم يعترف به في مصر سوى شركة الترام التي تفضلت فسوت بين طلابه وطلاب المدارس الثانوية والاعدادية في منحهم اشتراكات مخفضة على خطوطها .

اما ما عدا ذلك فما زال طلابه الراغبون في تعمق الثقافة والقومية والوعي العربي المناضل، يواجهون وحدهم العقبات الرسمية وغير الرسمية التي توضع في طريقهم فتعوقهم بقصد او بدون قصد عن مهمتهم الجليلة .

واذا كان حال المعهد في مصر ، منكورا من الدولة ومن الهيئات الادبية والثقافية ، فلا نلوم بقية الدول العربية اذا هي تجاهلت معهد القومية العربية ولم تلتفت اليه ، ولكننا نحيي سوريا الدولة ، وسوريا الشعب التي آمنت بفكرة المعهد القومية فبعثت اليه طلابا يتفرغون لدراسة القومية وينقطعون لها ويتفوقون فيها بما توفره لهم من امكانيات ، وما تفيضه عليهم من تشجيع .

واذا عتبنا على هذا او لمنا ذاك ، فلن يغتفر احد لمؤتمر الادباء ان يغفل او يجهل او يتجاهل معهدا قائما على دراسة القومية ، ولن يغتفر للقائمين على المؤتمر ان يهدروا



القومية في مهرجان القومية ، وان يندوها في مؤتمر قام من اجلها وان يفرض على الادباء او غير الادباء مفاهيم بالية بهذه الطريقة التعسفية التي طلب بها ان يؤمنوا بهذه الاراء البائدة والا فانهم فاقدو المشاعر جامدو الاحاسيس ، خارجون على قوميتهم .

واذا لم يكن هناك سبيل الى تدارك ما فات ، وكانت القومية قد غبنت في مؤتمر الادباء ، فان على المعنيين بالقومية ان يواصلوا زحفهم وان يجهدوا في ابانة معاني القومية وتعميق مجراها في نفوس الشعب حتى لا نخسر الجولتين ، ولكيلا تضيع بين الادباء

لا اريد بهذا ان اهدر جهود الذين بذلوا من عرقهم وبددوا بياض نهارهم وظلام لياليهم في سبيل المؤتمر ، ولا اريد ان اطفي الشمل التي توهجت في جلسات المؤتمر فاضاءت كثيرا من الدروب ، وبدرت كثيرا من الكلمات ولا اسمي احدا ممن لعلعت اصواتهم في ساحاته او رفعت ايديهم اعلامه من خلف الستار حتى لا اظلم غيرهم ..

لا اريد ان اقول ان المؤتمر فشل ، فهذا جحود لاعمال انسانية كريمة جهدت مااستطاعت وبصرف النظر عن الاخطاء الكبيرة والصغيرة فقد كسب لنا المؤتمر مكاسب ليس من الانصاف ان نتجاهلها .

ولكننا لا نريد كذلك ان يتبجح الاخرون فيزعمون ان النجاح المنشود كان حليف المؤتمر وان ليس في الامكان ابدع مما كان، فتلك مكابرة لا تشرف احدا ، ولا يقبلها احد ، واكثر الناس اخطاء هم اقل الناس اعترافا بالواقع.

ومسالة اغفال القومية في المؤتمر وتمييع مفهومها ، والارتداد بها الى تحديد رجعي بائد ليس الا واحدة من ظواهر كثيرة وكبيرة سنعود اليها في فرصة تالية .

القاهرة — رضوان ابراهيم

تعليم فن الرسم للمكفوفين

●

اذا كان الاهتمام بتعليم المكفوفين موادالتعليم العام قد بدا منذ مائة وستين عاما ، فان برامج هذا التعليم للمكفوفين ظلت تفتقر زمنا طويلا الى مادتين هامتين ، هما الرسم الفني والرسم الصناعي .

فالمكفوف لم يكن حتى الان يجد وسيلة تلقنه معرفة اشكال الاشياء كما تبدو في رسوم لها على سطح مستو ، ولم يكن هناك نظام او وسيلة فنية لتحقيق ذلك .

والمكفوف في حاجة — اكثر مما يحتاج المبصر — الى تخطيطات توسع وتصحح ادراكه للشكل وللعلاقات المكانية بين الاشياء من حوله ، وهو الى هذا محروم من الاحساسات البصرية التي تعزز في كل لحظة ادراك المبصر للمكان .

وقد بذلت الجهود منذ عهد بعيد لابتكار اجهزة ومناهج مختلفة تعين المكفوفين في ممارسة فن الرسم والرسم الصناعي. فاليوم تستخدم مدارس المكفوفين السوفياتية جهازا صغيرا يستطيع المكفوف بواسطته ان يرسم على الورق والبلاستيسين خطوطا بارزة ، تنطبع بطريقة آلية على ورق حساس بحيث يمكن عند الاقتضاء محو الرسم او تصحيحه .

ومنذ عام ١٩٥٦ اصبح برنامج الدراسة في مدارس المكفوفين في الاتحاد السوفياتي يشمل مادة « فن الرسم للمكفوفين » ويدخل في هذه المادة الرسم والرسم الهندسي والرسم الصناعي البارز والتجسيم بمادة البلاستيك .

ومن اهم الاغراض التي تهدف اليها هذه المادة الجديدة تعليم التلاميذ رسم احجام الاشياء على سطح مستو . وتعويدهم على قراءة الرسوم الصناعية وجميع الصور التخطيطية . وقد اصبحت مادة الرسم الصناعي في مدارس المكفوفين تحتل في الاتحاد السوفياتي مكانة هذه المادة في المدارس العادية

و « لتعليم فن الرسم للمكفوفين » غرض اخر هو تنمية الحس الجمالي والذوق في نفوس الاطفال المكفوفين . ففي المدارس العليا يتلقى الطلبة دراسة موجزة لتاريخ الفنون التشكيلية القومية والاجنبية .

وبفضل هذا التعليم ، استطاع التلاميذ السوفييات ان يتعلموا قراءة الرسم الكروكي والرسم الصناعي ، وان يكتسبوا من ذلك فكرة واضحة عن الشكل وعن الخصائص المميزة لجميع الاشياء التي تهمهم او تلزمهم ، وقد يكون من بين هذه الاشياء ما لم يالفه المكفوف من قبل .

بل وقد اكتسب هؤلاء التلاميذ بفضل هذا التعليم معرفة بالعالم الخارجي ، دون رجوع الى النماذج المجسمة ، فضلا عن معرفتهم باشياء — كالطائرات والبواخر والاعمال المعمارية — يفضل فيها معرفة شكلها التخطيطي دون جسمها . وعندما يتعلم التلاميذ قراءة الرسوم البارزة ، يستطيعون استخدام الكتب المصورة ، وكتب التعليم الابتدائي والعالي .

واذا كان المكفوف نفسه يمارس فن الرسم ، فان ذلك يعين المبصر على فهم العالم كما يتمثل للمكفوفين ، وعندئذ يستطيع ان يصحح تصوراتهم اذا اقتضى الامر .

ولعلنا نتصور جميعا مدى افتقار المكفوف بالولادة الى عالم من المدركات المحسوسة ، وعدم جدوى الكلمات في اثراء هذا العالم مهما اوتيت هذه الكلمات من قوة في التعبير .

ولسنا نستطيع في هذا المقال الموجز ان نبسط للقارىء الامال التي نعلقها على «تعليم فن الرسم للمكفوفين » وكيف يمنح هذا التعليم المكفوفين فرص الحياة الثقافية والخلق الفني. ونقتصر هنا على ايراد عبارة من خطاب لطالب مكفوف في مدرستنا اصبح اليوم معيدا بجامعة موسكو بعد ان نال اجازة الليسانس في العلوم الطبيعية والرياضية :

يقول في خطابه « بصفتي اتولى عملا عقليا وبصفتي رياضيا وخريج مدرسة ولد فيها (فن تعليم الرسم للمكفوفين) ، اعتقد ان المجدي ان اعلن ان معرض اعمال تلاميذ هذه المدرسة يعتبر حدثا له اهمية خاصة . فللمرة الاولى في تاريخ التربية اظهر المكفوفون قدرتهم على استخدام مناهج الصور التخطيطية وفتها استخداما حرا واسع النطاق »

ن. سمفسكي — [آراء اليونسكو]

مدرس الرسم

بمدرسة المكفوفين بموسكو

ماريا تولشيف راقصة الباليه الاولى

●

هذه البالرينا العظيمة راقصة باليه نيويورك الاولى ، والمتربعة على عرش الباليه في اميركا ، هي بالنسبة لجمهورها شخص اخر ، مخلوقة موهوبة ، ذات رشاقة وسحر وخفة حركة وجمال اخاذ ، حتى ان كل حركة من حركاتها تبدو وكان صاحبتها لم تبذل فيها جهدا . وهي بالنسبة لجمهورها سحر ممزوج بالخيال ، مخلوقة من عالم اخر لا انسانة من لحم ودم .

وليس غريبا اذن ان لا تشبه شخصية ماريا تولشيف ممثلة الباليه الاولى على مسرح فرقة

باليه نيويورك شخصية ماريا تولشيف المراة الا في النزر القليل . فهي على المسرح المغناطيس الذي يجتذب اليه جميع العيون... وهي في واقع الحياة امراة عادية قد لاتلحظها لو رأيتها في جمع من الناس ... فماريا لا ترتدي من الثياب الا ابسطها ، ولا تضع من المساحيق ومستحضرات التجميل الا اقلها ، وتترك راسها بدون غطاء ، عاقدة شعرها خلف راسها . وليس فيها ما يوحي بانها الراقصة المشهورة الا قوام سمهري ، ومشية سريعة فيها كبرياء وثقة بالنفس . ومع ذلك ، فمندما تلجئها الظروف الى الظهور في احتفال او اجتماع ذي طابع رسمي ، تظهر انوثتها ورشاقتها ويبرز جمالها الاخاذ على اروع صوره على ما هو منتظر من امراة تتربع على عرش الباليه .

ولعل القليل هم الذين يدركون مقدار الطاقة والوقت اللذين تحتاج اليهما الراقصة لاداء مهنتها على الوجه الاكمل . فمقابل كل ساعة تقضيها ماريا تولشيف على المسرح تنفق حوالي ٢٠ ساعة في الاستعداد والدراسة والتدرب. وهي ، الى جانب ذلك ، تخضع في حياتها الى جميع الممنوعات المحظورة على الراقصات، كالامتناع عن القيام باي نشاط قد ينطوي على احتمال الاصابة في اي جزء من اجزاء جسمها وعدم ممارسة الرياضة البدنية نظرا للضرر الذي تلحقه بعضلات الراقصة . وعليها ان تتقيد في طعامها بانواع من الغذاء تحفظ لجسدها نحافته ومرونته .

روضت ماريا نفسها على تحمل هذه المشاق منذ كانت في التاسعة من عمرها ، عندما انتقلت عائلتها من اوكلاهوما الى كاليفورنيا حيث كان يتوفر عدد من كبار معلمي الفنون المختلفة . وتقول ماريا عن طفولتها « اظن ان مسئولية الوالدين عما يصبح الطفل هي اكبر بكثير من مسئولية الطفل نفسه » .

وقد صح هذا القول بصورة خاصة في حالتها ، اذ بالرغم من المواهب الخارقة التي خصها بها الله في الموسيقى والرقص لم تكن ماريا تشعر بميل خاص لاي منهما ويعود الفضل الى والدتها ــ وهي امراة صغيرة الجسم من اصل اسكتلندي ــ هولندي ــ فيما وصلت اليه لانها كانت شديدة الطموح فيما يتعلق باولادها والى والدها الهندي الاميركي الذي لم يكن يؤيد كل ما تطمح اليه زوجته وحسب، بل وكان ايضا في وضع مالي يمكنه من تزويد اطفاله باحسن التعليم واقدر الاساتذة .

ومع ان ماريا كانت قليلة الاهتمام بتنمية مواهبها فقد كانت ابنة مطيعة محبة ، وكانت شديدة الرغبة في تادية ما يطلب منها. وبالتالي فقد انفقت من وقتها على الدراسة جزءا اكبر مما ينتظر ان ينفقه الطفل العادي .

غير ان طموح ماريا لم يستيقظ الا بعد ان تتلمذت على يدي مدام برونيسلافا نيجينسكا فمنذ ذلك التاريخ تركزت آمال ماريا على هدف واحد : وهو ان تصبح راقصة باليه مرموقة .

والعامل الاخر الذي شحذ مواهبها ودفعها الى سلم الشهرة هو زواجها من جورج بالانشاين، الذي يعد في طليعة كتاب الباليه الاحياء. وقد دام زواجهما خمس سنوات ، ولكنهما احتفظا بصداقتهما المهنية بعد الغاء الزواج عام ١٩٥١ . وماريا مدينة لارشاداته ومواهبه ، بل ان وصولها الى قمة المجد كراقصة اولى في فرقة باليه نيويورك عائد الى الباليهات التي وضعها او اعاد كتابتها جورج لتبرز مواهب هذه المراة الذكية الرشيقة .

وقد تزوجت ماريا اخيرا من هنري باشن وهو من رجال الاعمال في شيكاغو . ويدرك باشن ، لحسن الحظ ، ان واجباتها كراقصة الباليه الاولى في اميركا يجب ان تتقدم احيانا على واجباتها الخاصة كزوجة .

وتميل ماريا ، نزولا على حكم الظروف او عن رغبة منها ، الى قضاء اوقات فراغها مع عائلتها او اصدقائها المقربين . وهي تحب لعب الورق ، والمطالعة ، والاستماع الى الموسيقى.

وماريا تولشيف البالرينا غير ماريا تولشيف المراة . فهي على عكس ما يتوقع ان يجدها الانسان ، امراة تموج بالنضارة وتفور بحماس الفتاة الصغيرة . وهي ذات شخصية زئبقية ، لا تستطيع ان تربطها بعبارة او تسجل عليها كلمة . وهي مليئة بالمتناقضات ، تميل الى المزاح غير المحدود ، سريعة الضحك ، قلقة ، لا تعرف الان ما ستصنع غدا . وقد وصفها احد اصدقائها بقوله « ماريا ليست متقلبة ، ولكنها تتصرف بوحي العاطفة ، وهي لا تعلم ما ستفعله بعد لحظة » . وتعترف ماريا بانها لا تزال عرضة لنوبات من خشية الجماهير وهي على خشبة المسرح ، ولكنها تهدىء من روعها بان تقول لنفسها : ماريا ، لا تقلقي ، فقد اتيت ــ قبل اليوم ــ باعمال اكثر صعوبة واشد قوة » .

ومهما اجادت ماريا في الرقص فانها تشعر دائما انه يمكن ان تجيد اكثر .. ونظرا لذكائها الحاد ، فان ماريا تلم بحوادث ايامها حتى ما كان منها لا يتصل بفنها بشيء . وهي تحب افراد عائلتها حبا عميقا مخلصا ، وتزورهم في اوكلاهوما كلما استطاعت الى ذلك سبيلا .

اما وجهها ، الذي يفيض حياة عندما تتحدث فسرعان ما تعلوه غلالة من الكآبة والحزن اذا هي بد ساكتة ساكنة . ولا يعرف احد ما اذا كان سر ذلك هو حنين لا شعوري لحياة الانسان العادي الخالية من القيود ، ولكن هل تتمنى ، ماريا الفنانة ، مع ذلك ، لو كانت حياتها غير ما هي اليوم ؟ ان القيود الصارمة المفروضة عليها والتي قد تثير الانسان العادي ليست بالنسبة لها سوى وسيلة الى غاية ــ الغاية التي تتمناها كل راقصة حقيقية ــ وهي متعة التفوق في الرقص والحرمان الوحيد الذي لا يطاق بالنسبة لماريا تولشيف هو حرمانها من هذه المتعة ...

قالوا في « الاديب »

●

قالت مجلة الدبور الغراء التي تصدر في بيروت :

البير اديب رجل يعمل في لبنان من اجل رفع سمعة لبنان . انه يضحي بالغالي والنفيس ليبقى لهذا البلد الصوت المدوي في ميداني الادب والشعر . انه يضع عصارة قلبه ودماغه في خدمة بلاده وابناء بلاده !

قبلة على وجنة البير اديب الاديب الكبير الذواقة ، وتهنئة خاصة على عدد « الاديب » الممتاز الاخير

هل اطلعت على هذا العدد ؟ هل حاولت ان تعلم من هم الذين وراء هذا المشروع الجليل؟

لقد جمع البير اديب حوله رهطا من الجياد الاصيلة التي لا تكبو في ميداني الشعر والادب وقال لهم هاكم « الاديب » فاخرجوا منه عددا ممتازا بمناسبة السنة الجديدة .

لقد اثبت البير اديب انه نفحة عابقة بالشذى من نفحات هذا البلد العاطرة ، كما اثبت ايضا ان « لا نبي في وطنه » !



٢ يناير ١٩٥٨ – استنفر الجيش الروسي في برلين الشرقية للمحافظة على الامن ولم تعرف الاسباب .

– دعا الجنرال اسكندر ميرزا رئيس جمهورية باكستان الى انضمام امريكا الى حلف بغداد انضماما تاما واكد ان ميثاق بغداد ليس ضد الجامعة العربية بل انه يؤيدها ويدعمها .

٣ – وصل سير ادموند هيلري قاهر قمة ايفرست الشهير الى القطب الجنوبي [قاع الكرة الارضية] . بطريق البر على رأس بعثة نيوزيلندية .

– ظهرت اليوم الى الوجود دولة اتحادية جديدة هي اتحاد جزر الهند الغربية [بحر الكرايب في امريكا الوسطى] وقد اقسم حاكمها اليمين الاتحادية في تريني دار. وتعمل الحكومة الاتحادية الموقتة لاعداد اول انتخابات فدرالية في مارس القبل .

– عاد الجيش الروسي الى حالته الطبيعية في برلين الشرقية فيما اعلن البريطانيون ان جنديا روسيا هرب الى قطاعهم .

– اعلن رئيس جمهورية فنزويلا القضاء على الثورة التي قامت منذ ايام بعد ان استسلمت الحاميات وفر زعماء الثورة .

٤ – القى هرولد ماكميلان رئيس الحكومة البريطانية بيانا اقترح فيه عقد معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفياتي والدول الغربية كما اقترح عقد مؤتمر اقطاب بين الشرق والغرب .

٦ – الف دافيد بن غوريون الوزارة الاسرائيلية الجديدة وهي ائتلافية كما كانت سابقتها .

– غادر جاكارتا رئيس الجمهورية الاندونيسية احمد سوكارنو الى اقطار اسيا وافريقيا .

– قرر الاتحاد السوفياتي تخفيض قواته المسلحة ٣٠٠ الف رجل .

٧ – توفي الدكتور بيترو هروتزا رئيس جمهورية رومانيا .

٨ – وصل الى نيودلهي المستر هارولد ماكميلان رئيس الوزارة البريطانية في اول زيارة يقوم بها رئيس حكومة بريطانية للهند خلال توليه الحكم . وسيجري ماكميلان محادثات مع زعماء الكومنولث خلال جولته التي ستشمل الهند والباكستان وسيلان ونيوزيلندا واوستراليا .

٩ – القى الرئيس ايزنهاور في الكونجرس بيانه السنوي وضمنه مشروعا من ثماني نقاط لمواجهة الاتحاد السوفياتي في ميدان العلوم والاسلحة الحديثة . مع الاستعداد للبحث بنزع السلاح على اساس المراقبة المشتركة .

١٠ – اعلنت الولايات المتحدة ان سلاح الطيران نجح في اطلاق صاروخ « اطلس » عابر القارات ومدى الصاروخ المذكور خمسة الاف ميل .

١١ – وصل الدكتور احمد سوكارنو رئيس جمهورية اندونيسيا الى القاهرة في زيارة رسمية لمصر .

– انتخب يون جيورجي ماورير رئيسا لجمهورية رومانيا .

١٣ – وصفت الدوائر الدبلوماسية في القاهرة المحادثات الجارية بين الامير فيصل ولي عهد العربية السعودية ورئيس وزرائها وبين الرئيس جمال عبد الناصر والمسؤولين المصريين بانها تتعلق بالموقف في الشرق الاوسط والمسائل البترولية والعلاقات العربية عامة والمصرية السعودية خاصة وهي المحادثات التي بدأت منذ وصول الامير الى القاهرة في طريق عودته من امريكا .

١٥ – اعتقلت الحكومة التركية عددا من ضباط الجيش بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم القائم .

١٦ – وصل الى القاهرة وزير الخارجية السورية صلاح الدين البيطار للقيام بمحادثات مع المسؤولين المصريين وصفت بانها هامة . ومما يذكر ان اللواء عفيف البزري رئيس الاركان العامة للجيش السوري وصل الى القاهرة منذ ايام .

١٧ – تجري في لندن محادثات بين داغ همرشولد السكرتير العام للامم المتحدة وسلوين لويد وزير الخارجية البريطانية بشأن المشاكل العالمية بما فيها قضية نزع السلاح .

١٨ – اعلنت الحكومة الاسبانية نبأ اعتقال ٤٤ شخصا بتهمة التآمر على الدولة ومحاولة بعث الحزب الشيوعي الاسباني وقلب نظام الحكم .

١٩ – وصل الدكتور احمد سوكارنو رئيس جمهورية اندونيسيا الى دمشق في طريقه الى باكستان وستجري محادثات بينه وبين المسؤولين .

٢٠ – ارسلت يوغوسلافيا الى فرنسا مذكرة احتجاج شديدة اللهجة على استيلاء الفرنسيين بصورة غير مشروعة على شحنة سلاح تحملها السفينة اليوغوسلافية سلوفانيا الى الدار البيضاء . وكانت مدمرتان فرنسيتان قد اعترضتا السفينة بالقرب من ساحل الجزائر واقتادتاها الى وهران لافراغ الاسلحة .

٢١ – رفضت فرنسا المذكرة اليوغوسلافية وطلب الافراج عن شحنة الاسلحة واتهمت كلا من يوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا بمد ثوار الجزائر بالاسلحة .

– دعت الحكومة السوفياتية الى جعل منطقة الشرق الاوسط وفيها دول ميثاق بغداد منطقة مجردة من السلاح الذري والنووي عامة ومن القواعد الذرية .

دعت اليابان الدول الكبرى في مجلس الامن الدولي الى منع استخدام حق النقض « الفيتو » ليتحقق بذلك خطوة لاستعادة ثقة العالم .

٢٣ – وقع انقلاب في فنزويلا اطاح بالرئيس بيريز خمينيز بعد ثورة قصيرة دامية سبقها خلاف طويل بين الرئيس وسلطات الكنيسة. وقد فر الرئيس جيمينيز الى جمهورية دومنيكا وقد اعلن مجلس عسكري يتالف من خمسة ضباط برئاسة الاميرال دولفنانغ لارازابال انه سيحكم البلاد .

٢٤ – اعلن الرفيق نيكيتا خروشوف ان الحكومة السوفياتية تعتبر ان الحاجة الى عقد مؤتمر للاقطاب اصبحت ماسة جدا كما اقترح تحريم الصواريخ عابرة القارات .

٢٦ – وصل صلاح البيطار وزير الخارجية السورية الى القاهرة حاملا القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء بشان الخطوات التنفيذية للدولة العربية المتحدة من سورية ومصر وسيعرضه على الرئيس جمال عبد الناصر .

٢٧ – استقال جانوس كادار رئيس حكومة هنغاريا وقد صرح انه يريد الانصراف الى عمله كسكرتير اول للحزب الشيوعي الهنغاري.

– عقد مجلس حلف بغداد اجتماعه في انقره بحضور وزير الخارجية الامريكية جون فوستر دالس بوصفه مراقبا .

مطابع الشراع الحازمية - بيروت